

التوحيد

دراسة معاصرة

تأليف

السيد ابو القاسم الديباجي

دار الثقلين - لبنان

دراسات في أصول الدين

(١)



دراسة معاصرة

تأليف

السيد أبو القاسم الديباجي

الطبعة الالكترونية الاولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله منتهى الحمد وغايته، حمداً يقصر عن تناوله الحامدون، ويعجز عن إدراكه القانتون، حمداً ليس فوقه حمد، ولا يلحقه حمد.

الصلاة والتسليم على رسوله الأمين، ونبيه المرسل رحمة للعالمين، محمد المصطفى وعلى أهل بيته الأمناء المعصومين، الهداة المهديين.

وبعد:

فلم يعد الحديث عن التوحيد في عصرنا الحاضر يدور ضمن المحاور التقليدية التي اصطبغت بها المحاورات الفكرية والمحاجات العقائدية في القرون الغابرة والدهور السالفة، حيث ارتكز الحديث فيه - بين حدّيه السلبي والإيجابي - ضمن الاستدلالات العقلية والمنطقية، وبعض الإشارات المحدودة التي تحاول جاهدة أن تثبت ضمن المحسوس ما لا حصر له من الشواهد المحيرة التي تثير في مخيلة العقلاء ألف تساؤل وتساؤل عن الأسرار العظيمة الكونية التي تحيط بهم، والتي لا بد لها من أن تدفعهم بالتالي إلى التسليم والقطع بوجود الخالق المدبر العظيم المقتدر، ووحدانيته.

ولا غرابة في ذلك، فقد جاء العلم الحديث بأبعاده المختلفة المتعددة - التي قفزت بالبشرية أشواطاً واسعةً عظيمةً، ومراحل متقدمة لم تكن في حسبان الكثيرين - ليؤكد الكثير من تلك الحقائق التي كان يستدل بها الموحدون، من جانب، وليقطع بالتالي من جانب آخر على عجزه عن تفسير ما أبهمه الخالق عن خلقه وجعله حكراً به، وشأناً مختصاً بمشيئته، وتلك هي أكبر الشواهد على عظمة الخالق وكمال رسالته التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ، ذلك الرجل الذي يعبر عنه المفكرون الأوربيون بالرجل البدوي الذي لم يغادر أرض الجزيرة، ورمالها القاحلة الجرداء طيلة حياته، ذلك الرجل الأمي الذي جاء ليخاطب البشرية على امتداد العصور بلغة العلم وشواهده الرهيبة التي لم يجد

الإنسان وهو في قرنه العشرين – وحيث غزا الفضاء، وجاب في بعض أسراره – بداً من أن يسلم بإذعان لا شك فيه أمام عظمة ذلك الرجل، وكمال رسالته التي لا يمكن أن تصدر عن البشر قطعاً، وبأي شكل من الأشكال.

نعم، لا مناص لأحد من الجزم بذلك والتسليم به إذا تجاوز عقدة المكابرة والتحامق والغباء المجوج، وهذا ما دفع الكثيرين من العلماء والمفكرين الذين قادتهم خطواتهم المتسلسلة على جادة البحث العلمي الرصين إلى التسليم بهذه الحقيقة والإقرار بها دون خفاء أو تكتم، كأمثال بركسون الذي أثاره النظام الخارق والدقيق للذرة – والذي تنذهل أمامه العقول – فأعلن عن إيمانه بوجود خالق واحد قدير هو الذي أوجد هذه الأمور بحكمته وقدرته التي لا تحدها حدود.

بل ولا ينحصر هذا الأمر بمقولة فردية خاصة، ورأي متفرد، حيث نجد التصريح في ذلك واضحاً من قبل العلماء الباحثين في علم الذرة والعلوم الطبيعية والفلكية، حيث يذهبون إلى الجزم بأن جميع ما اكتشف من قوانين ونظم مختلفة متعلقة بهذه العلوم تدل دلالة قطعية على وجود خالق مدبِّر واحد.

ومن هنا، فإن المستقرئ في طيات تلك الشريعة الخالدة لا يعسر عليه أن يحصر الجم الوفير من الدعوات المتكررة والكثيرة المنادية بوجوب تعلم العلم، والاستزادة منه، لأنه من الوسائل الناجعة التي تقود الإنسان نحو التعرف على الكثير من الحقائق التي تشير إلى ماهية التوحيد وحقيقته الثابتة.

بلى، ولا يبقى هذا الأمر حصراً بالشريعة الإسلامية دون غيرها من الشرائع السماوية التي سبقتها، بل هو ديدنها جميعاً لا استثناء فيه، بيد أن يد التحريف التي تنبعث من أغراض مختلفة رائدها الجهل والتخلف هو ما جعل من رواد تلك المدارس سيفاً مصلّتاً على رقاب العلماء والمفكرين، فحجر على العقول، ودفعها بمعزل عن العلم والعمل والإبداع والاكتشاف، فسقطوا في الهاوية، وقادوا أممهم نحو الحضيض، ثم لتأتي ردة الفعل المعاكسة والقوية بمعاولها الإلحادية على جميع ما جاءت به تلك الشرائع، وما جاء به أولئك الأفاكون.

فالكنيسة التي أوقدت محارق كثيرة للعلم والعلماء هي التي أوجدت ردة الفعل الإلحادية لدى العديد من الباحثين في العلوم الطبيعية والكونية، وهي التي تتجسد صورتها في مقولة (كونت) الفيلسوف المعروف عندما يقول: إن الإخلاص الديني يجب أن يتحول من خدمة إله غير معروف إلى خدمة الإنسانية....!!

بل وتجد (لاروس) في قاموسه عند تفسير كلمة الدين يقول: الدين هو مجموعة مقررات تنافي العقل والفكر الحر!!

ولا غنى عن القول بأن ردود الفعل هذه ما هي إلا سيئة واضحة من سيئات الكنيسة وعدائها

السِمج للعلم والعلماء، حتى أقامت محاكم التفتيش البغيضة التي حاكمت ما يقارب من الثلاثمائة ألف من العلماء، بل وأحرقت منهم أكثر من ثلاثين ألفاً من كبار علماء الطبيعة الذين أثبتوا خلاف النظريات التي تنادي بها الكنيسة دون علم، كقول أولئك العلماء بحركة الأرض حول الشمس، وحركة الكواكب، وغير ذلك من الحقائق الكونية التي كان ينادي بها القرآن الكريم قبلهم بقرون عديدة.

ثم أن جملة الحقائق الكونية والطبيعية التي استطاع الإنسان أن يتوصل إليها بعد جهود مضنية، وتجارب كثيرة - تفلح حينا وتكبو أحيانا - قادت ذلك الإنسان المادي إلى التسليم المطلق بوجود الإله الواحد المدبر الذي تقول به الأديان السماوية على طول التاريخ، وتدعو للإيمان به، وهذا ما نقرأه ونسمعه ونشاهده في أحيان كثيرة متكررة.

نعم، إن هذه الحقائق التي تجزم بوجود ذلك الخالق المدبّر هي عين الشواهد التي دفعته للقطع بواحدانية ذلك الخالق وتفرده، وهذا ما سنتناوله في مباحثنا التالية إن شاء الله تعالى.

إشارة لابد منها

عندما يتأمَّل المرء في قول الإمام علي عليه السلام: بالعلم يعرف الله تعالى ويوحد، لابد أن تتوضح أمامه جملة من الحقائق المختلفة:

أولها: الدعوة المعروفة الثابتة التي ينادي بها الإسلام بوجوب سلوك طريق العلم للوصول إلى مرفأ الأمن من خلال الفهم السليم لماهية العقائد الإسلامية، بعيداً عن الفهم السطحي وغير الدقيق، والذي قد يصيبه الاهتزاز قبالة بعض الهزات العلمية والعقائدية المشككة، والتي تحاول الاتشاح زوراً بلباس العلم والمعرفة، والدعوة إلى الواقعية التي -على حسب زعمهم مريض- لا شك في صحة وجودها وثباتها، وإن الإيمان بشيء مادي ملموس، نستطيع أن نحضّره في أنابيب المختبرات خير من الإيمان بشيء لا نراه ولا نلمسه!! وهذا ما وقع في حبائله الكثير من الحمقى والمغفلين، فانحدروا في الهاوية السحقية كالهوام التي لا تهتدي إلى خير، ولا تصل إلى أي هدف... وهذا ما تجد له الكثير من الإشارات الواضحة والمتكررة في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

بل وتجد بوضوح جلي كيف أن الله تبارك وتعالى قرن طاعته وخشيته باتباع طرق العلم بأشكالها المختلفة، والتي يكمل بعضها بعضاً بلا شك ولا ريب، حتى استخلصها بقوله جل اسمه: ﴿إنّما يَخْشى الله من عِبادِهِ العُلَماءُ﴾[1].

ثانيها: إن في التزود بالعلم والاغتراف من ينابيعه خير وسيلة لإدراك وحدانية الخالق من خلال التأمّل في آياته ودلائله... وبالتحديد في مخلوقاته، لأنها محل بحثنا هنا.

نعم لقد أذهلت عظمة الخلق ودقة صنعه ووحدانية نظامه عقول كبار علماء الطبيعة الماديين فأقروا بأنّها لابد من أن تكون من صنع خالق مقتدر عظيم واحد لا ثاني معه، مرتكزين على مقولة يؤكدها العلم حيناً بعد حين، ودهرا بعد دهر، بأن وحدة الخالق تتراءى في وحدة الخلق... ثالثها: عظمة علوم

أهل البيت عليهم السلام، والذين كانوا يخاطبون الناس آنذاك بلغة تربيهم وتعلمهم، وبكلمات نورانية تستضيء بها الأجيال على طول التاريخ، حاثة إيّاهم على سلوك طرق المعرفة والعلم، مشيرة إلى الكثيرة من المفردات الكونية التي كانت حتى زمن قريب من الألغاز المحيرة، حتى استطاع العلم الحديث وفي القرن العشرين تلمسها وإثباتها بعد جهد جهيد...

نعم إن هذه التوصيات النورانية التي بدأ العلم المادي الحديث يقرّ مذعناً بصواب منهجيتها حين آمن بها شيعة أهل البيت عليهم السلام في تلك العصور التي كان العلم فيها مجرد إشارات مشوشة وغير واضحة...

بل إنّ هذا السمو العلمي العظيم يبدو في أوج وضوحه عند الدراسة المتأنية للكثير الكثير من الروايات والأخبار المنقولة عنهم عليهم التحية والسلام، وهذا ما ليس هو بمحل بحثنا الآن قدر ما ابتغينا منه الإشارة واللمحة العابرة.

وهكذا فإن الانطلاق من الحديث النوراني المتقدّم ذكره من أن الله تبارك وتعالى بالعلم يُعرف ويوحّد، لابدّ أن يقود خطأ الباحث عن الحقيقة إلى المعرفة الصحيحة التي أشار إليها الإمام عليه السلام والتي هي بغية الباحثين عن سبيل النجاة.

وحقاً إن العلوم التي يمكن أن يستوعبها ويدل عليها هذا الحديث عديدة ومتنوعة، إلاّ إنّا في معرض حديثنا هنا سنحاول أن نتدرج فيه أول الأمر من خلال التدبر في الآيات الكونية التي تحيط بنا، ثم نعرج منها إلى غيرها من الشواهد الأخرى.

وقفة مع الشواهد الكونية

لعل الكثير منا، وبحكم تآلفه الطويل، ومشاهداته المتكررة للكثير من الشواهد الكونية المختلفة، بمظاهرها المتعددة الواسعة، وبتدبيرها المتقن العجيب، لم يجد نفسه في حالة تساؤل وتأمل دقيق في ماهية النظام الذي يحكم تلك الظواهر، وكيف تخضع جميعها لقوة تمتلك الإشراف المباشر النهائي على سر بقائها وديمومة وجودها...

نعم لا يستطيع أحد أن ينكر افتراض وجود هذه الحالة من التراخي المتفاوت بين السلب والإيجاب، بين حالة الإيمان المطلق بوجود الله تبارك وتعالى كقوة قاهرة وقادرة تدبر أمر كل شيء بنظام سماوي دقيق ورائع، وإن هذا الكون بكل أبعاده يمتلك الكثير من الأسرار العظيمة الدالة على قدرة الخالق جلّ اسمه، وإنه لا مبرر يوجب مثل هذه الحالة من البحث والتدبر. وبين حالة التسليم الساذج والبليد لجملة باهتة من الافتراضات الساقطة التي تحمل في طياتها أدلة سقوطها وفسادها.

بلى - وحديثنا مع الفئة الأولى - إن حالة الإيمان المطلق لا تغني المرء من التدبّر والتأمل في ما يحيطه من الظواهر السماوية المختلفة، بأشكالها المتعددة، ازدياداً في المعرفة والإيمان، وتسلحاً باليقين المؤدي للتسليم، وهو ما حث الله تبارك وتعالى عليه عباده في أكثر من موضع من كتابه العزيز:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾[2].

وقال جلّ اسمه: ﴿إنّ في خَلْقِ السّمواتِ وَالأَرْضِ وَاختِلافِ اللّيلِ وَالنّهارِ وَالفُلْكِ التي تَجري في البحر بما ينفع النّاسَ وما أنزَلَ الله من السّماءِ مِنْ ماءٍ فَأحيا بِهِ الأرضَ بعد مَوْتِها وَبَثّ فيها مِنْ كُلّ دابَةٍ وَتَصريفِ الرّياحِ وَالسّحابِ المُسَخّرِ بَينَ السّماءِ وَالأَرْضِ لآيات لِقَومٍ يَعقِلونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَهوَ الذي مَدّ الأرضَ وَجَعَلَ فيها رَواسيَ وَأنهاراً وَمِنْ كُلّ الثمراتِ جَعَلَ فيها

زَوجينِ اثنينِ يُغشي اللّيلَ النّهارَ إنّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكّرونَ﴾[٤].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَسَخّرَ لَكُم اللّيلَ وَالنّهارَ وَالشّمسَ وَالقَمَرَ وَالنّجومَ مُسَخّراتٍ بِأمرِهِ إنّ في ذلك لآيات لِقَومٍ يَعقلونَ﴾[٥].

وقال جلّ اسمه: ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السّمواتِ وَالأرضَ واختِلافُ ألسنتكم وَألوانِكُم إنّ في ذلكَ لآياتٍ للعالمين... وَمِنْ آياتِهِ يُريكُمُ البَرقَ خَوفاً وَطَمَعاً، وَيُنَزّلُ مِنَ السّماءِ مَاءً فَيُحيي بِهِ الأرضَ بَعدَ مَوتِها إنّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ﴾[٦].

وقال جلّ اسمه: ﴿إنّ في السّمواتِ وَالأرضِ لآياتٍ للمؤمنينَ﴾[٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إنّ في خَلقِ السّمواتِ وَالأرضِ وَاختِلافِ اللّيلِ وَالنّهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ الذينَ يَذكرونَ اللهَ قِياماً وَقعوداً وَعلى جُنوبِهِم وَيَتَفَكّرونَ في خِلقِ السّمواتِ والأرضِ رَبّنا ما خَلقتَ هذا باطِلاً تسبحانك فقِنا عَذابَ النّار﴾[٨].

إلى غير ذلك مما لا يعسر على باحث إدراكه بيسر دون أي عسر.

والحق يقال: إن المستقرئ المتبصر في جملة هذه الآيات المباركة يجد بوضوح الدعوة الصريحة التي أشرنا إليها، والداعية إلى التدبر والتأمّل في مخلوقات الله تعالى، ودقة صنعها وتدبيرها، ومنها الكونية التي سنحاول على عجالة استعراض جملة من أبعادها المختلفة.

نعم، ولنبتدأ أولاً بما نعاينه كل يوم من بعض الأجرام والكواكب وغيرها، من التي تمتلئ بها صفحة السماء وتتزين بها كالقلادة المرصعة بالجواهر الثمنية اللامعة.

الشمس، والقمر، والنجوم، وغيرها من المخلوقات التي التصقت بحياة الإنسان، واعتاد هو على وجودها ورؤيتها، يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام.

فالشمس التي تطل على الأرض كل صباح، فتمتلئ الحياة نشاطاً وعملاً وحركة، وتغرب مساءاً فيلقي الليل المظلم عليها بستاره الأسود الموشى بأعداد لا حصر لها من النجوم اللامعة والمتناثرة كالأضواء النائية في كبد الصحراء، حين تجد القمر قد تربع في وسط السماء بضوئه الجميل الهادئ، في دورة دائبة له على طول كل شهر، نراه يطل في بدايته كالوليد صغيراً ضئيلا، ثم يكبر حتى يكتمل قمراً ليلحقه بعد ذلك النقص والهزال حتى يختفي ليعود بعد ذلك إلى دورته السابقة، شهراً بعد شهر، منذ أن خلقه الله تبارك وتعالى، وحتى يأمر سبحانه بأمر جديد هو عنده محفوظ.

بلى تلك هي المشاهدات المتناوبة التي تتلاحق بدروات ثابتة ومنتظمة، وعليها ابتنت حضارة البشرية ووجودها، وعند طروء أي خلل في هذه السلسلة الثابتة فإن ذلك إيذاناً بدمار حتمي، وفناء لابد منه.

فهذه الشمس التي تعدّ مركز مجموعتنا الشمسية، والتي تعتبر واحدة من ملايين النجوم السابحة في الفضـاء، والتي يقدر عددها بحدود الأربعـين مليوناً، والتي يذهب العلم الحديث إلى أنها كتلة ملتهبة محاطـة بطبقة غازية في حالة التهاب مسـتمر، هل يدرك الإنسـان التدبير الدقيـق في خلقها، وحجمها، وبعدهـا عـن الأرض، بحيـث لو أن أي تغيير حصـل في مجمل الترتيب الدقيـق والمحكم لحدث ما لا يحمد عقباه، ولكان في ذلك النهاية الحتمية للحياة على كوكبنا العامر بالحياة والحيوية.

إن العلماء والفلكيون يقدرون مسـاحة هذا الكوكب العظيم – الذي يعد سـطحه أكبر من سـطح أرضنا هذه ب(١٢٥٤٤) مرة – بأنها حوالي (١٩٠) تريليون متر مكعب، وأن قطرها يبلغ (٨٥٠٠٠٠) ميـل، وهـي تبعد عن الأرض بحدود (٩٢) مليون ميل، حيث يسـتغرق وصول ضوئها إلينا عند أول بزوغها حوالي (٨) دقائق، علماً بأن الضوء يقطع (٣٠٠٠٠٠) كيلومتراً في الثانية.

وللمرء أن يتصور ماذا كان يحدث لو حصل تغيير في هذه المواصفات والأبعاد، وما سيكون مصير البشرية على الأرض، وكيف سيكون شكل الحياة.

فالعلـماء يذكرون بوضوح أن الشـمس لو ابتعدت – مثلاً – عـن الأرض ضعف ما هي عليه الآن لنقصـت الحـرارة التـي تصل إليهـا إلى الربع، ولقلت حركـة الأرض في مدارهـا إلى النصف، فيترتب نتيجة لذلك أن يطول فصل الشتاء إلى ضعف ما هو عليه الآن، وتنجمد الأرض بما فيها.

وأما لو افترضنا العكس، واقتربت الشمس من الأرض بالنسبة المذكورة، فإن ذلك يعني تضاعف سرعة الأرض في مدارها إلى النصف، وعندها تختل جميع الموازين، وترتفع الحرارة على سطح الأرض إلى شكل يؤدي إلى تبخر ما عليها من المياه، ولحل الفناء والموت فيها بلا أدنى ريب.

ويصدق عين الحال لو تزايدت نسبة الحرارة المنبعثة منها أو قلت لعوامل مختلفة أخرى.

إذن فـما هـو الخاطر الذي لابد مـن أن يمر بذهن المتأمل في هذه الحقائق وهو يعلم بأن الشـمس ما زالت منذ خلقها الله تبارك وتعالى تهب الدفء والحياة للأرض وفق هذا النظام الدقيق والثابت، وبهذا الشـكل وهـذه الكيفية... فهل أوجدتها الصدفة والعبثية والـضرورة؟ أم أن هناك قوة مقتدرة حكيمة خلقـت هذا الجـرم العظيم بهذه المواصفـات، ووضعته في مـداره الدقيق، دهور طويلـة لا يعلمها إلا الله تعـالى وهـو في هذا المسـار الثابت، لا زيادة ولا نقصان، بل خضوع مطلق لبرنامج سـماوي مترابط الأبعاد، افتراض تخلخله يعني الجزم بنهاية حتمية له، وهوما سنتعرض إليه لاحقا إن شاء الله تعالى.

ثم لو أنا تأملنا جرماً سـماوياً آخراً له التصاق وثيق بالأرض، لا ينفك أبداً عن الدوران في فلكها، فسنجد بلا شك دلالة كونية أخرى على عظمة الخالق جل اسمه ووحدانيته.

فهـذا القمر الذي قـدره الله تبارك وتعالى بمنازل اعتمدها الناس في حسـاباتهم، واسـتضاؤا بنوره

في لياليهم المعتمة، وأصبح حقاً لصيق حياة الإنسان، وقرين وجوده، قد لا يعلم البعض بأنه صاحب الأثر الفاعل في حدوث ظاهرتي المد والجزر، وإن هاتين الظاهرتين مرتبطتين بقربه وبعده عن الأرض، وانه لو اقترب منها – مثلاً – بشكل يتجاوز فيه حدوده المرسومة له لارتفع منسوب المياه وغرقت الأرض بما فيها.

بيد أن البارئ جل اسمه قد وضعه في مداره المناسب على بعد (٢٤٠٠٠٠) ميلاً، وبحجم يقل عن أرضنا هذه بخمسين ضعفاً، حيث إن قطره يبلغ (٢٢٦٠) ميلاً، لتتناسب كتلته مع بعده بشكل دقيق جداً.

وأما لو ألقى الناظر طرفه بعيداً في أعماق الفضاء المترامي الأطراف، وفي ليلة واحدة من ليالي الصحو الصافية لتأمل أعداداً لا حصر لها من النقاط المضيئة التي تزين تلك العتمة، وتظفي عليها سحراً وروعة، كانت السماء دونها سوداء معتمة موحشة.

بلى – ويوافقني في ذلك الجميع – أن تلك الدرر المتناثرة على واجهة السماء، وبأشكالها وأعدادها ونظام ترتيبها قد، منحت الليل الدامس والكالح السواد سحراً وجمالاً يجتذب نظر الإنسان فيثير في مخيلته جملة واسعة من التساؤلات التي لو استقصى آثارها لحلّق في أعلى درجات السمو الروحي، بعيدا عن ربقة الركون إلى الشهوات المادية، والمتع الدنيوية الزائلة.

وحقاً إن ذلك الأمر لا يخفف على المتطلّع اللبيب، والمتفحّص المتدبّر، بيد أنّ لهذا النظام والترتيب الكثير الكثير من الفوائد الجمة والكثيرة التي علم بعضها الإنسان، ولا زال الكثير منها خافياً عليه.

فالبارئ جل اسمه عندما أشار في القرآن الكريم إلى بعض من تلك الفوائد الكثيرة لهذه النجوم، فإنّه تبارك وتعالى قد فتح الباب على مصراعيه لبني الإنسان من أجل أن يعمل جهده، ويستفرغ سعيه في تقصي الآثار العظيمة لهذه الموجودات الكبيرة.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿**وهو الّذي جعل لكم النّجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون**﴾[٩].

وقال جل اسمه في سورة النجم. ﴿**وعلامات وبالنّجم هُمْ يهتدونَ**﴾[١٠].

وليس بخاف على المختص بهذا العلم، وحتى من له بعض المطالعات فيه أن قدماء الفراعنة والإغريق والعرب قد اهتدوا إلى تلك الحقيقة العظيمة، فاعتمدوا هذه النجوم في تحديد طرقهم واتجاهاتهم على الأرض، في البر والبحر، فأمنوا بذلك من الضياع، ونجوا من التخبط، وكل ذلك بفضل اهتدائهم بهذه الدلالات التي خلقها ووضعها في فلكها الخاص بها الخالق جل اسمه.

فأولئك القدماء الذين أشرنا إليهم قد تعاملوا بشكل موفق مع هذه الظواهر، وضمن هذه الحدود

التـي أشرنـا إليهـا، وأسـموا البعض منها بأسـماء خاصة منهـا، كالشـعرى اليمانية، والسـماك الرامح، والأعزل، وغيرها.

بـل انهـم أطلقوا عـلى جملة أخـرى من تجمعـات تلك النجـوم – ووفـق ما يتناسـب وشـكلها، ونـظمها – أسماء خاصة بها أيضاً، كمجموعة الدب الأكبر، والعقرب، والجاثي على ركبتيه، والأسد، وغيرها، وحيث يصل عددها على ما يذكر إلى (٩٠) مجموعة.

ثـم إن الأمـر لا يتوقف عـلى ذلك، بل أن في ترتيب هـذه النجوم ونظمها ما يشـكّل حلقة مترابطة الأوصال متكاملة الأطراف، بنظام جذب متكافئ يجذب بعضه البعض الآخر في هذا الكون الفسيح، والمترامـي الأبعـاد. بلى فـإنّ التطور الحاصـل في العلم الحديث قد جـاء ليبرهن على أن هـذه الأجرام السماوية تخضع لقوانين رياضية ثابتة، وتشكّل فيما بينها وجوداً هندسياً دقيقاً ورائعاً، وأنّ هذه القوانين بوحدتهـا وتماسـك أطرافها تدل دلالة قاطعـة على وجود خالق مقتدر هو مسـبّب جميع هذه القوانين، والمهيمـن عليهـا، وأنّـه واحد أحد، تظهـر وحدانيته من خـلال التفحّص المتأمّل في وحـدة نظام آثاره هذه.

وقفة مع عظمة الكون

لعـل البعـض يتصوّر أن الفضاء الذي يحيط بنا- بأطرافه المنظورة -يشـكّل أبعاد الكون وحدوده، أو لعل ما عرف عن وجود ما يحيط مجموعتنا الشمسية بأجرامها المعروفة هو ذلك الكون المشار إليه في القرآن الكريم من أنه هو السموات، وهي تعني نهاية الكون.

بـلى ربـما يعتقد البعـض ذلك كما كان تصوّر الإنسـان في الدهور السـالفة، حيث بقـي يتعامل معه ضمـن هـذه الحـدود الضيقـة والصغيرة، بيـد أنّ العلم الحديـث، وما حققـه من تطور كبـير في علوم الفضــاء والفلك وغيرها أصيـب بـالذهول والحيرة وهو يخطو على أعتـاب هذا الـكون، ويلج أبوابه الأولى.

فقد تبين لهذا الإنسان انه لا يعدو كونه أقل من ذرة غبار متطايرة في هذا الفضاء المترامي الأطراف، حيـث لا يمكـن أن يجعل بينـه وبين ما يحيطه من بعض مظاهر الكون المختلفة نسـبة ما، وحيث تتزايد نسبة هذا الفهم والتصوّر كلّما اقتحم ذلك الإنسان بعلمه عوالم كونية أخرى.

فابـن آدم ذلك الكائـن الضعيف الصغير الذي يدفعه غروره الفارغ، وكبرياؤه المخدوع لأن يكون خصيم مبين، بل وأن يعرض عن أمر ربّه بصلف وحمق، لو تأمل هنيهة في صغر حجمه، وضعف قوته أمام أبسط ما يحيطه من مظاهر الكون التي لا تعد ولا تحصى، ولجأ إلى عقله لا إلى حمقه وجهله لأدرك عظم ما افتراه، وخواء ما تصوره.

نعـم، فهذا الإنسـان الذي لا يشـكّل شـيئاً قبالة هذه الأرض التـي يعيش فيها، لـو أدرك أنها (أي هـذه الأرض) مجرّد جرم صغير متواضع في هذه المجموعة الشمسـية التي تتضاءل ضمن مجرة عظيمة بالنسبة إليها، متواضعة بما يحيطها.

فمجموعتنا الشمسـية التي تشـتمل على ما في حدود المائة بليون من النجـوم أو أكثر- والتي تنظم

إليهـا الكثير من المجموعات الشمسـية المناظرة لها – ليسـت في حقيقة الأمر إلا جـزءً صغيراً جداً من المجـرة التـي نعيـش فيهـا، والتي تعرف بـدرب التبانـة، والتي يبلـغ قطرها حوالي (١٠٠٠٠٠) سـنة ضوئيـة، وأنـت تدرك أخـي القارئ الكريم بـأن سرعة الضوء هـي (٣٠٠٠٠٠) كـم / ث، فلك أن تتصور المساحة الهائلة لهذه المجرة، وكم يستغرق الإنسان في قطعها، وحتى لو افترضنا أنه يستطيع أن يسير بسرعة الضوء.

ثـم إن الأعظم من ذلك كون مجرتنا العظيمة هذه ليسـت إلا واحدة مـن ملايين المجرات العظيمة المتناثرة في الكون، والتي يتباعد بعضها عن البعض بأبعاد سحيقة مترامية.

فالفلكيـون يذهبـون إلى القـول بأن أقرب مجـرة إلينا هي مجـرة (اندروميدا) وهي تبعـد عن مجرتنا بحدود (٦٨٠٠٠٠) سنة ضوئية وفق الحساب الرياضي.

وحقـاً إن الإنسـان ليصيبـه الذهول، وتنتابه الحيرة وهـو يتأمّل في هذه الحقائـق المذهلة عن الكون الـذي يحيطـه، والذي أثبت العلم بأنّه في حالة توسّـع وتمدد مسـتمرين، وهي الحقيقة التي أشـار إليها القرآن الكريم صريحاً قبل أكثر من خمسة عشرة قرناً من الزمان، وفوق أرض الجزيرة القاحلة. لقد قال الله تبارك وتعالى في سورة الذاريات: ﴿**والسّماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون**﴾[١١].

وهذا ما لم يكن يدركه أو يفهمه الناس لا في ذلك الزمان، ولا في عصر متأخّر عنه، لأنه من ثمرات العلوم الفلكية الحديثة التي ما زالت تفاجأ العلماء يوميا بحقائق رهيبة عن هذا الكون وغرائبه، والتي تحدّث عنها القرآن الكريم بوضوح ودون لبس.

فالعلم الحديث يذهب إلى القول – ووفق ما نتجت عنه بحوث ما يسـمى بالتحليل الطيفي – بأنّ مجرتنا –مثلاً– تندفع في الكون بسرعة كبيرة جدا تقدر بآلاف الأميال في الثانية الواحدة، في حالة تمدد لا تنحـصر بها لوحدها، بل تشـمل هذا الكون بأكمله، وحيث يقـدر هذا التمدّد بأكثر من مائة ميل في الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سـنة ضوئية، وحيث يذهب المختصون بهذا العلم الدقيق إلى أن حجم الفضاء في عصرنا الحاضر قد أصبح – ونتيجة لهذا التمدّد الذي ذكرناه – عشرة أضعاف ما كان عليه منذ بدايته، فما أعظم خالق هذا الكون، والذي أمره لا يتجاوز الكن فيكون.

بل وتتجاوز الإشارات الكونية إلى غير ذلك من الحقائق التي ما زال العلم الحديث بالكاد يتوصل إليها، ومن ذلك قوله تعالى في سـورة يس: ﴿**والشـمس تجري لمسـتقر لها ذلك تقديـر العزيز العليم * والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النّهار وكلّ في ذلك يسبحون**﴾[١٢].

وقـال جـل اسـمه في سـورة الرعـد: ﴿**الله الذي رفع السـموات بغير عمـد ترونها ثمّ اسـتوى على**

العرش وسخر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمّى يدبر الأمر يفصّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾[١٣].

وقال تعالى في سورة فاطر: **﴿يولج الليل في النهار ويولج النّهار في الليل وسخر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمّى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾**[١٤].

وقال سبحانه أيضاً في سورة الزمر: **﴿خلق السموات والأرض بالحقّ يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار﴾**[١٥].

والبحث العلمي في محاكي هذه الآيات المباركة يظهر جملة من الحقائق الرهيبة التي جادل الكثير في إثبات مضاداتها ، ولكن الدليل العملي الحديث أثبت بما لا يقبل الجدل ما أشار إليه القرآن الكريم قبل أكثر من خمسة عشر قرناً.

ففي الوقت الذي عارض فيه (غاليلو) نظرية علماء اليونان الحاكمة، والسائدة في المحافل العلمية – والتي عليها ابتنت جملة واسعة من التصورات والاعتقادات – والقائلة بثبات الأرض ودوران الشمس والنجوم حولها، وصرح (غاليلو) ومن وافقه من الفلكيين بأنّ الشمس هي الثابتة، وأن الأرض هي المتحركة، وكان من نتيجة تصريحه هذا أن حصل الصدام العنيف بين أفكار الكنيسة ودعاتها، وبين من وافق (غاليلو في مذهبه هذا، وما هو سبق أن أشرنا إلى بعضه آنفاً.

نقول: في ذلك الوقت كان القرآن الكريم يصرح بفساد نظرية الطرفين وسقوطها، فقد أشار جلّ اسمه إلى حقيقة أن كل شيء في حالة حركة وجريان مقدّرة ومدبّرة من قبل الخالق جلّ اسمه.

نعم، صرّح القرآن الكريم بذلك قبل قرون طويلة، وعلماء الفلك يخطون ويتعثّرون حتى قادهم هذا السعي الحثيث لإثبات ما سبق أن صرّح به محمد بن عبد الله ﷺ بواسطة القرآن الكريم.

بلى في ذلك العصر حيث كان الإنسان يمتطي الدابة، ويشرب ماء الآبار، ويأكل اللحم القديد، ولا يعرف ما الكهرباء، وما الطاقة، وما هي التكنولوجيا...إنسان بسيط متواضع الإمكانيات... كثيراً ما يفترش الأرض ويلتحف السماء... بيد أنّك تجد من يقول رغم كلّ ذلك بأن القرآن الكريم من وضع محمدﷺ وتأليفه!! فهل بعد هذه الحماقة من حماقة؟

أقول: إن العلم الحديث قد توصل إلى تلك الحقيقة التي أشرنا إليها، وصرح بأنّ من الثابت كون النجوم تتحرك في الفضاء بسرعة تقدر بحدود (٢٠) كيلو متراً في الثانية الواحدة، وأنها مضافا إلى دورانها في أفلاك خاصة بها حول بعضها فإنها تتحرك أيضا بحركة مشتركة حول ما يسمى بالمحور الأصلي العمودي على الدائرة الاستوائية للمجرة.

أي أن الشمس والأرض وباقي الكواكب في مجرتنا مع توابعها تتحرك بشكل لولبي بسرعة تقدر

بحـدود العشريـن كيلو مترا في الثانية نحو نجمة في السـماء تسـمى بالنسر الواقع، ولـك أخي القارئ الكريم أن تتصور عظمة سعة هذا الكون، ومدى تباعد أبعاده.

ولا يتصـور أحـد أن هـذا الفهـم الذي قـد تآلف عليـه البعض من الأمور اليسـيرة التـي لم تذهل العلماء والفلكيون، بل إنه يعتبر من أهم الاكتشـافات العلمية التي تصاغرت أمامها كلّ الاكتشـافات السالفة.

فهذا (سيمون) الذي يعتبر من أكبر علماء الفلك يقول عن هذا الاكتشاف: لعل من أعظم الحقائق التي استطاع العقل البشري أن يكتشفها في كافة العصور كون الشمس والكواكب السيارة التي هي في المجموعـة الشمسـية وأقمارها التي تجري متجهة نحو برج النـسر بسرعة غير معهودة لنا على الأرض، حيث أننا يكفي لتصورها أنه لو افترضنا أنّا نسير بسرعة مليون ميل يومياً، فإنّ مجموعتنا الشمسية لن تصل إلى هذا البرج إلاّ بعد مليون ونصف سنة...

عود على بدء

لابـد للمسـتقرئ في جملة الحقائـق الكونية، ونظمها الدقيق مـن لحظة تأمل وتدبّـر لإدراك القدرة الجبـارة التي أوجدت هذا الكون الرحيب والمترامي الأطراف من العدم، وأحكمت أوصاله، ورتبت نظامه، وأتقنت ترتيبه، حتى جعلته يخضع لنظام لا يحيد عنه، ولا يتجاوزه، لأن في ذلك الفناء والدمار القطعي.

نعم إنّ الثابت العلمي كون الكواكب السابحة في الفضاء، ونحس مداراتها المنتظمة تخضع لقوانين جذب سماوية، تترابط فيما بينها بشكل متكامل موحد، خاضعة لقوة مهيمنة على ذلك، ومشرفة عليه.

ولا يسـع الملحـدون والماديون إلا الإقرار بهـذه الحقيقة مرغمين كما في تصريـح (بوخنر) المعروف بإلحـاده في كتابـه (المـادة والقوة) حيث يقـول: إن كل الأجرام السـماوية - كبـيرة أو صغيرة - تخضع صاغـرة بغير اسـتثناء ولا انحـراف إلى الناموس الملازم لكل مادة، ولكل جزء مـن مادة كما تدلنا عليه التجربـة مـن آن لآخر، وإن جميـع حركاتها تبدو لنا وتحدد أمامنا وتنبئنا عـن حدوثها بضبط رياضي لا يتطرق إليه الخلل.

وفي ذلك - رغم ذهابه في كتابه إلى الإلحاد - إقرار بوجود القوة المدبرة التي وضعت ذلك الناموس الملازم للمادة، وهو خلاف مذهبهم القائل بالصدفة ونفي القصد، حيث ما تتفق عليه العقول كون أي نظـام لا يمكن أن يصدر قطعا من العدم، ولا يمكن أن ينشـأ الضبـط إلا من ضابط، وهو الخالق جلّ اسمه.

والأغـرب مـن ذلـك مقالة الماديين الذاهبـين إلى أنّ الضرورة هي التي رتبت هـذا الكون على هذه الشاكلة من النظم الدقيقة، والترتيب المحكم، معزين ذلك إلى أن أي تغير يحصل في أي جزء من أجزاء الكون فإنّه بالضرورة سيرافقه تغير في سائر الأجزاء!!

وفي ذلك الافتراض البعيد عن الواقع أكثر من دليل على سقوطه وفساده، وإلا بماذا يبررون أن يكون الكون في بدايته منتظماً ودقيقاً؟ ألا يمكن افتراض كونه مضطرباً مختلطاً، وعندها يجر الاختلاط اختلاطاً والاضطراب اضطراباً وفق ما يذهبون إليه.

نعم، فما ضرورة أن يكون الكون منتظماً لو لم يكن هناك خالق مدبّر مقتدر رتّبه بهذا الشكل من الانتظام والدقة.

بلى إنّ ظاهرة القصد في كل الخلق واضحة جلية للجميع حتى لفاقدي البصر، ولا يسع أحد تجاوزها والإعراض عنها.

فهل يعقل أحد أنّ يكون عدم القصد هو الذي أوجد عوامل الحياة وظروفها الخاصة باستمرارية الحياة على وجه الأرض، وبهذا الشكل الذي تنذهل أمامه العقول والألباب!!

بل وهل كل الحلقات المتسلسلة في إتمام جميع العمليات المعقدة المختلفة هي وليدة عدم القصد!!

إنّ ذلك لمن التخرّصات المتغرّبة عن أي دليل أو برهان.

ثم إنّ الأسخف من ذلك كله قول من يقول بأن هذا الكون العظيم، ونظامه المتقن العجيب من صنع المادة وإيجادها!! متجاهلين كون المادة لا يمكن لها أن تخلق نفسها من العدم، حيث تفتقر إلى موجد لها وخالق، فكيف يمكن لها أن توجد هذا الكون الهائل بموجوداته!

بل إن من الثابت كون حركة كل جسم ساكن لا تتم إلا بواسطة محرك يعمل على تحريكه، والمادة كما هو معلوم قاصرة عن ذلك الفعل دون وجود ذلك المحرك، أو ما نعبر عنه بالقوة الخارجية، فكيف بالله تستطيع هذه المادة العمياء والصماء الساكنة أن توجد هذا الخلق البديع المنظم وهي محرومة من الحياة، ومن العقل، ومن القدرة!!

ثم لنتساءل عن تبرير أولئك وغيرهم ممن يقول بالصدفة بأن تكون مدارات الكواكب حول الشمس بشكل اهليجي، وأن تدور بأجمعها حول الشمس باتجاه واحد، بل وأن تبتعد عن الشمس بعداً منتظم الاطراد.

ثم ما تبريرهم لأن يكون دوران أقمار الكواكب حولها في مستوى يتطابق تقريباً مع مستوى دوران تلك الكواكب حول الشمس، بل وأن تقع هذه الأفلاك أيضاً - باستثناء أفلاك النجيمات - في مستوى واحد تقريباً؟ فهل يمكن تصور خلو تنضيدها وترتيبها من وجود خالق مدبّر رتب هذا الكون، وأحكم بنيانه، وجعل لكل شيء غرضاً، وهدفاً، وحكمةً، ومساراً يجب عليه أن يدور فيه من خلاله، ويلتزم بقوانينه.

ولنتأمل قليلاً في كلمات نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) الذي يعتبر من أكبر علماء الفلك في عصره،

حيث يقول: من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها.

ثم قال: ومن الجلي الواضح بأنه لا يوجد أي سبب طبيعي استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها في وجهة واحدة، وعلى مستوى واحد بدون حدوث أي تغير يذكر، فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه.

ثم إنه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يعطي هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافتها بالنسبة إلى الشمس، ومراكز الحركة تلك الدرجات لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها.

فلأجل تكوين هذا النظام مع جميع حركاته لا بد من وجود مسبب عرف هذه المواد... وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس، وبين توابعها عطارد والزهرة والأرض، وقرر السرعة التي لا بد أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكز لها.

ثم أضاف. وغير هذا، ففي تكوّن الأجرام السماوية، من أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلى قسمين، القسم المضيء منها انحاز إلى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها، كالشمس والنجوم، والقسم المعتم تجمع في جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة، كالكواكب وتوابعها...

كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له.

وقفة مع الإنسان

لا أعتقـد جازمـاً بـأن في مسـتطاع أي موسـوعة علميـة – مهما بلـغ أطنابها وتوسـعها، وتخصص الباحثين فيها – أن تستطيع الإحاطة التامة أو الوافية بالجوانب المعقدة التي يصعب حصرها والمتعلقة بهذا المخلوق التي يعتبر بحق من أروع مظاهر الآيات السماوية، وقدرتها التي لا تتوقف عند حد.

ولا أغـالي قطعـاً في مـا أذهـب إليه من هذا الجـزم والنفي المطلق، فـلا زال العلم رغم مـا بلغه من السمو والرفعة ليحبو متصاغراً أمام عظمة هذا الكائن التي تجمعت فيه بلا ريب كل الأسرار الكونية، ومظاهر عظمتها.

بـلى وتلك الحقيقة القطعية لتظفر بوضوح من خلال تأمل بعض المفردات المحددة من الكم الوفير الذي يزدان به ابن آدم في أبعاده المختلفة.

ولنأخـذ مثلاً أدوار الجنين التي يمر بها الإنسـان في مراحل تكوينـه المتدرجة... فإن العلم الحديث كان وحتى فترة غير بعيدة يجهل تلك الأدوار، وعندما اكتشفها أصابه الذهول، وانتابته الحيرة أمام هذا الإعجـاز الإلهي، وبقي عاجزاً عن أن يجد تفسـيراً لأسرار هذه المراحل التكوينية المترابطة، والتناسـق الرائع فيما بينها.

فمنـذ أن تجـاوز العلـم الحديـث العقبـة الـكأداء في تحديد هـذه المراحـل المحصورة بـين مرحلتي الإخصـاب الناتجـة عـن التقاء الحيامـن الذكرية للرجـل والبيضة الأنثويـة للمرأة، والـولادة الكاملة للطفـل، وأدرك بـأن هنـاك عدة مراحـل معقدة تمتـد بي هاتين المرحلتين، حيث تنقسـم تلـك البيضة المخصبـة إلى خليتـين ثم إلى أربـع ثم إلى ثمان ثم إلى أضعافها من الخلايا الحيّة، وهي التي تشـكل المواد الأوليـة لتكويـن الجنين، وبشـكل تلقائي مرتـب ترتيباً دقيقا، وحيـث تتوفر له في جميـع تلك المراحل الظـروف الملائمة لنموه، والمحافظة عليه مـن الأعراض الجانبية. فالجنين في مراحل نموه يحاط بكيس

يسمى بكيس الأمنيون، يحوي سائلاً خاصاً لتنشئة وحماية الجنين، ويبقى ملازماً له، محيطاً له.

بل وهيأت الغذاء اللازم له بواسطة دم الأم، وعن طريق المشيمة التي تزوده بالغذاء بواسطة الحبل السري الذي يبقى ملازماً له حتى ولادته.

وأبان تلك المراحل المتلاحقة يبتدأ الجنين بالتخلق بالصفات والسمات البشرية المختلفة، كل مرحلة تختص بجانب، حتى يكتمل ذلك في الشهر التاسع ليصبح بعد ذلك مؤهلاً لأن يترك هذا المحيط الصغير ليلج في عالم البشرية مواصلاً نموه وتطوره أسوة بغيره من بني آدم.

أقول: منذ أن تجاوز العلم معرفة هذه الأسرار الغريبة عن عالم الأجنة هذه وهو يقف حائراً أمام هذه الإعجازات الكونية الدالة على وجود القوة المدبّرة القادرة التي وضعت هذا البرنامج الدقيق، ورتبت مواده وظروفه، دون عناء وعسر.

بيد أن هذا الإدراك العلمي المتقدم يشير إلى جملة واضحة من الدلالات ذات البعد الكبير:

أولها: رغم ما أثير وما يثار حول ما يشكله هذا الاكتشاف العلمي من خطوة رائدة في العلم الطبي البشري، بيد أن ذلك في حقيقته لا يشكل إلا تأكيداً وإقراراً بحقيقة سبق أن أشار إليها القرآن الكريم قبل أكثر من خمسة عشر قرناً، حيث قال الله تبارك وتعالى: **﴿لَقَدْ خَلَقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طينٍ ثمّ جعلناه نطفةٍ في قَرارٍ مَكينٍ ثمّ خَلَقْنا النّطفة علقةً فخلقنا العلقةَ مُضْغةً فَخَلَقنا المُضغَة عظاماً فَكَسونا العظامَ لحماً ثُمّ أَنشأناهُ خَلْقاً آخر فتباركَ الله أحسن الخالِقينَ﴾**[١٦]

وقال جلّ اسمه أيضاً: **﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من ترابٍ ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقةٍ وغير مخلقةٍ لنبيّن لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً﴾**[١٧].

والعلم الحديث بما توصل إليه من رقي كبير وتطور عظيم يبدو شديد التواضع قبالة هذه الدلالات الكبيرة على صدور هذا القرآن من قبل الخالق - الذي أنشأ هذا الخلق ودبره، ولذا فهو أعلم بدقائقه وأسراره.

ثانيها: إن في تلك الدلالات إشارات قطعية إلى الإعجاز الإلهي الذي تعهد تلك الخلايا الحية بالرعاية والعناية، وخلقها خلقاً بعد خلق، في صور لأشكال تكمل بعضها البعض، حتى تكتمل في آخر المطاف بشراً سوياً، ضمن برنامج لا تدري المرأة كيف يجري، ولا بأي شكل، لأنه شأن من شؤون السماء أعدت الظروف والأجواء المتكفلة به.

بلى فما هو دور الرجل والمرأة في ترتيب هذا البرنامج الدقيق والمركب، وهل هما اللذان يتعهدان تلك النطفة أو البيضة المخصبة، ويرتبان ظروف نشأتها، وكيفية نشأتها، وبالتالي - يهبانها الروح، لتجد

المرأة بعد فترة من الزمن أن هناك قلباً ينبض بالحياة في جوفها، وجسداً يتحرك في أحشائها.

إن ذلك من الأمر القطعي بأن هذه التطورات لتجري بمعزل عن الاثنين، وخارج عن قدرتهما وإرادتهما، وتلك هي سنة الخالق جل اسمه في خلقه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أفرأيتم ما تمنونَ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقونَ﴾[١٨].

ثم أن المشيئة الإلهية، والتقدير الرباني قد أودع في تلك النطفة - التي هي ماء مهين يخجل المرء منه - كل الصفات الوراثية بالرجل، وكذا هو الحال بالنسبة للمرأة في بويضتها المخصبة، كل واحدة تحمل جملة من الصفات الوراثية، والتي قد تمتد إلى أجداد غابرين لهؤلاء الاثنين، وبمواصفات مختصة بهما، ولذا تجد هذا البون الشاسع من بني البشر، رغم أنهم تولدوا من نطفة ظاهرها واحد لا يختلف...

أفليس من حق المرء أن يتساءل أنى لهذه النطفة المتواضعة أن تحوي كل هذه العوامل المعقدة والدقيقة، ثم كيف أخذت بعد ذلك تتشكل بأشكال متتابعة مختلفة ولمراحل متلاحقة، حتى أنها تحولت إلى علقة، ثم تحولت تلك العلقة إلى مضغة، لتتحول بعد ذلك تلك المضغة إلى عظام، ثم لتكتسي العظام بعد ذلك لحماً، بل وولوج الروح، التي لم ولن يجد لها الإنسان تفسيرا لأنها من الشؤون السماوية.

ثم تجد ذلك المخلوق الحي وقد تكاملت خلقته وأصبح إنساناً سوياً، يمتلك الحواس التي يحتاجها في حياته، من عينين، وأنف، وفم، وشفتين، ويدين، ورجلين، وو... والتي تتركز أظهرها في حواسه الخمسة المعروفة، وهي: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس، والتي لولاها لغدا الإنسان كالحجارة الصماء، لا صوت لها ولا ترد الصدى.

حواس ركبت ورتّبت بشكل حير العلماء وأذهلهم، وقسرهم على الاعتراف بعظم الإعجاز السماوي.

ثم ألا يقف المرء ليتساءل عمّن خلق هذه الأعضاء الظاهرة بهذه الكيفية الرائعة، ورتبها في أماكنها المناسبة، والتي لو حولت إلى غيرها لانعدمت أو قلت فائدتها.

بل ومن منح هذا المخلوق القدرة على التحسس، والإدراك، والفهم، وأعطاه عقلاً لا يعرف العلم من أسراره إلا قليلاً.

ثم من رتب نمو أعضائه بهذه الكيفية المتعادلة والمنسقة، بحيث لا تجد - إلا شاذاً لظرف غير طبيعي - لا يداً تزداد طولاً عن قرينتها في نموها، ولا رجلاً عن أختها، لأن ذلك يعني تشوهاً خلقياً يصيب ذلك الإنسان، ويقلل من فوائدها ومن جمالها.

كما أنك تجد أن جميع الأجهزة التي صنعت، بسيطة كانت أم متطورة، لابد لها من أن تخضع لمبرمج يشرف عليها، ويدير عملها، ويتابع حركاتها، بل ولا يسعها أن تتطور تلقائياً إلا في الحدود التي تتدخل فيها إرادة مبرمجها أو المشرف عليها، ولأجهزة متفرقة مخصوصة بهذا الاهتمام، بيد أن جميع الأجهزة البشرية التي لا تخضع لمشيئة الإنسان تعمل تلقائياً، وترتبط فيما بينها ارتباطاً مبرمجاً، وتتطور بما يوائم حاجة ذلك المخلوق لها.

فهل لهذا المخلوق أن يأمر القلب بأن يعمل بكيفية خاصة يريدها هو، بل وهل في إمكانه أن يأمر كبده بأن يكون نشاطه بشكل آخر، وكذا هو الحال بالنسبة لباقي هذه الأجهزة العظيمة.

ثم هل توقف المرء هنيئة أمام القدرات المعقدة لتلك الأجهزة المتواضعة الحجم، والتي لو ابتغى العلم أن يوجد بديلاً عنها لوجدته مقلداً لها، مفرطاً في مقدار حجم ما يوجده، بحيث لا يصلح أو يكون بديلاً عنها قطعاً بكيفيتها التي خلقت بها وإليها.

وحقا إن هذا الأمر يشكل الطرف الأول من التساؤل الذي لابد أن يجد له صدى في مخيلة المتأملين، حين تجد الطرف الآخر من التساؤل يكمن في علة ذلك التشابه المطلق في كيفية هذا الخلق، ومراحل تكوينه، ودقائق أسراره، حيث تجده وحدة مطلقة، واتفاقاً ثابتاً، وحتى لو استعرضت هذه الملياردات التي لا تعد ولا تحصى من شعوب الأمم المختلفة في أقاصي الأرض وقيعانها، وأوديتها وجبالها، في شرقها وغربها، وفي شمالها وجنوبها، وهي دالة قطعاً على أن المنشئ واحد أحد، ولو كان هناك غيره لبان خلقه، ولتباينت مخلوقاته عن غيرها، ولكنها وحدة مطلقة دالة على وحدة الخالق، وإلا فخاطب الملحدين وقل لهم قوله تعالى في سورة النمل: ﴿هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[١٩].

استجلاء مختصر

عندما يترك المرء لقلمه العنان في مرتكض واسع الأطراف فإنه ينبغي له التأمل بين التارة والأخرى في أين انساب به تسلسل الاستدراج الذي يسببه ويشجعه الظرف المواتي، والتلاحق المتواصل، تحاشياً من الأطناب والاسترسال وما لنيل الفائدة المرجوة بأقصر السبل والوسائل.

بيد أن حقيقة هذا التخصيص دون الاحتواء، والحديث عن بعض الجوانب الإعجازية لبعض المخلوقات - التي أشرنا وسنشير إليها إن شاء الله تعالى - المنظورة من قبلنا، والخاضعة لتفحصنا، لا يعني أنّا قد وفينا مبحثنا غايته ضمن هذه الحدود، وداخل هذه الأبعاد، وأدركنا في ذلك طلبتنا، وتلك حقيقة لا مناص لنا من التصريح بها، والتنبيه عليها، وهذا ما لا يخفى على أحد قطعاً حيث أن تلك الأبعاد التي تناولها ويتناولها حديثنا عن تلك المحدودات لا يتجاوز اللمحة المستوحاة من التأمل المتعجل لتلك المذكورات.

ومن هنا فإن ما ينبغي للمتفحص المستقرئ التنبه إليه من خلال تلك الإشارات المختصرة هو العمل لإدراك جملة أوسع من تلك الإثارات، بل ومن غيرها من التي لم يسع البحث احتواءه، أو حتى مجرد الإشارة إليه.

ولا غرو في ذلك فقد ذكر القرآن الكريم في آياته المتفرقة الإنسان صاحب العقل المتطور بالتأمل في الكثير الكثير من المفردات المختلفة، والتدبر في خلقها، وفي نظمها، وتبين عللها وأسرارها، لأن في ذلك أنجح الطرق الموصلة بالأذهان نحو الإيمان بوجود الخالق المقتدر، الواحد الأحد، وتلك حقيقة ليست بخافية على أحد قطعاً.

وإذا كنا قد أشرنا في حديثنا السابق إلى بعض المظاهر الكونية وما فيها من الأعجاز والدلائل المصرحة بوجود الخالق الواحد، المتفرد بإيجادها، ومن ثم عطفنا على ذلك الإنسان الذي حوى بلا

شك أسرار هذا الكون العظيم، ودقائق خلقه، وذلك ما يبين بوضوح من خلال الدراسة العلمية الشاملة المستفيضة المتأملة.

وما أصدق قول الشاعر في ذلك إذ يقول مخاطباً هذا المخلوق بقوله.

أتحسب أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر

أقول: أن ذلك يشكل مدخلاً واسعاً للاسترسال والتدبّر، لا في هذا المخلوق فحسب، بل وفي غيره من المخلوقات الحية، وغيرها من التي تحوي الكثير من الدلالات المعضدة للبحث.

فهل تأمّل المتدبّر في بعض تلك المظاهر المختلفة، ومنها عالم النباتات في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيتُم ما تَحرِثونَ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[٢٠].

هل تأمل فيه كم يحوي من الإشارات الصريحة التي تفتح أمام ناظر المتدبر آفاقا واسعة من التأمل والاستغراق.

ألا ترى أن الآية الكريمة قد حصرت هذا الخلق بالله تبارك وتعالى، وحده لا شريك له، وهذا ما يتبين بوضوح عند الاستقراء في كيفية نشأة هذا النبات ونموه.

فالزارع عندما يلقي ببذره في أرضه التي أعدها للزراعة، ثم يفيض بعد ذلك عليها الماء، يجد أن الأمر برمته بعد ذلك قد خرج من يده، فما يحصل بعد ذلك هو خاضع لبرنامج سماوي، وإيجاد إلهي.

إن ما يدور في مخيلة ذلك الزارع هو الانتظار والترقب لما ستأتي به الأيام بعد، من تفتق سطح التربة هذه عن سويق طري دقيق يخرج عن تلك البذرة اليابسة الميتة، الخالية من الحياة، معلناً عن ولادة موجود حي في عالم النبات، كما هو حاله في عالم الإنسان.

أفلا يتساءل ذلك، الزارع كما يحق لنا نحن أيضاً أن نتساءل كيف انشقت تلك البذرة – وهي راقدة في جوف الأرض – عن جانبين، امتد أحدهما في التربة التي تحيطها، والآخر إلى خارج الأرض، فالأول يمتص الأملاح الموجودة في التربة ليحيلها إلى غذاء يستطيع طرفه الثاني بواسطته النمو والانطلاق أكثر في الجانب الآخر.

بل ثم نراها تمتد، وتتطاول ، وتزهر، ثم تعطي ثمراً طرياً غذاء للآكلين...

نعم لقد رأيناها أول عهدها مجرد بذرة واحدة، فإذا هي بعد ذلك تعطي ما لا عد له ولا حصر من البذور في بعض النباتات.

ثم إنك أخي القارئ الكريم لو تأملت في جملة متفرقة من البذور المختلفة لما وجدت فيما بينها اختلافا بيناً، وقد لا تستطيع التمييز بين البذور المختلفة، ما هذه وما هذه، ويزداد هذا الأمر وضوحاً

لو أنبتها في أرض واحدة، وبتربة متماثلة، وسقيتها من ماء واحد، وبنفس النسب والمقادير، وأخضعتها لعين المؤثرات الطبيعية، فإنك تجدها عندما تنمو وتزهر تتمايز فيما بينها باكتسابها ألواناً وأشكالاً متعددة، تختلف كل واحدة عن الأخرى اختلافاً يزداد ويتضح مع الأيام، حتى تمسي كل واحدة منها نوعاً معيناً يعطي ثمراً خاصاً به، وكأنه لا يربطها بأصلها وأسباب نشأتها شيء ما، وهذا هو عين الحال في كل النباتات.

نعم، ولعلّ التأمّل المتخصص بكل نوع من أنواع تلك النباتات يظهر جملة عجيبة من الإبداعات السماوية، والمترابطة بشيء ما مع غيرها من المخلوقات الأخرى ارتباطاً متيناً يضفي عليها فاعلية جماعية ضمن الجهد العام الدال على وحدانية المنشئ الذي خلق هذا الكون بأكمله، ورتب حلقاته بحيث ترتبط كل واحدة بغيرها من خلال جانب معين، أو لعلها جوانب متعددة.

ولنتأمّل في حلقة عظيمة يرتبط بها عالم النبات مع غيره من الموجودات الحيّة الأخرى، وهو الهواء، الذي يشكّل أساس بقاء الحياة، وبالأخص في أهم عناصره وهو الأوكسجين.

فالموجودات الحيّة تستهلك في جهدها التنفسي غاز الأوكسجين وتحوله إلى غاز ثاني أوكسيد الكاربون، الذي يسبب تنفسه الاختناق، والذي لا يصلح قطعاً للتنفس، وكثرة الاستهلاك المتنوع هذه تزيد من نسب هذا الغاز في الجو، فكانت المشيئة المدبرة لكل شيء، والواحدة المحيطة بكل شيء قد رتبت منفذاً واسعاً لتدرأ من خلالها هذه النسبة المتصاعدة من هذا الغاز، وفي هذا دلالة واسعة على وحدانية خالق هذه الموجودات من خلال وجود حلقات الربط الموضوعي بينها.

نعم فقد جعل الله تبارك وتعالى من النباتات خير مستهلك لنسب هذا الغاز المتصاعدة، وخير معادل لنسب غاز الأوكسجين المتدنية نتيجة الاستهلاك الواسع له من خلال العمليات المختلفة، حيث ترى أن النباتات في عملية صنعها لغذائها - أو ما يسمى بالتمثيل الغذائي - تستهلك ثاني أوكسيد الكاربون - المتكاثر في الجو - لتحيله بعد ذلك إلى أوكسجين تلفظه إلى الجو، في عملية معقدة ودقيقة تساهم من خلالها في إدامة استمرار الحياة على الأرض.

ثم ألا يحق للمرء أن يتساءل - وهو يتأمّل في هذه الحقائق العظيمة التي تؤديها هذه النباتات التي تظهر كأن لا حول لها ولا قوة - عمن أودع فيها هذه القدرات العظيمة، التي يستدعي تحقيقها توفر عدد وإمكانيات متطورة تستهلك مساحة كبيرة، حين تجد هذه النباتات تجري عمليات تمثيلها الغذائي في أوراقها بشكل هادئ ورائع دال على قدرات رهيبة أحاطت بتدبير هذا الأمر بهذا الشكل الإبداعي.

بل وتجد أن هذه النباتات - في سعيها للحصول على الغذاء - تمتص بواسطة جذورها الأملاح

الموجـودة في الأرض، وتحيلها إلى غذاء لها بمسـاعدة ثاني أوكسـيد الكاربون الموجـود في الجو، وترى جذورها تمتد عميقاً في الأرض بحثاً عن ذلك الغذاء، وأما إذا اعترضها عارض معين يحيل دون امتداد جذرهـا، كصخرة مثلاً، فإنها تفرز مادة كيمياوية تعمل على إذابة تلك الصخرة، وإيجاد منفذ لها، وكل ذلك تسهيلا لتوفير المواد التي يحتاجها النبات لصنع غذائه في عملية أذهلت العلماء وحيرتهم، وحيث عمـدوا إلى إجـراء تجارب كثيرة ومعقدة للوصول إلى الغرض الذي تصله أوراق الأشـجار من عملية صنـع الغذاء التي تدخل فيهـا- بالإضافة إلى ما ذكرناه - عناصر كيمياوية كالمادة الخضراء التي تدعى بـ (الكلورفيل)...

فهل تسـاءلنا أيضاً عمن منحهـا هذه القدرات العجيبة، بل ورتب لها هـذه الوظائف المتعددة بهذا التنسيق الرائع، والتنظيم المحكم؟

ثم ماذا يدل المتسائل عن ذلك وهو يرى هذا الإحكام المرتبط الحلقات بين الموجودات المتعددة، بل وأن يرى الشـكل العام لهذه النظم كيف يدل بوضوح على صدورها من مشكاة واحدة؟ ألا يدل ذلك على وحدانية خالقها ومنشئها الذي دبّر كل شيء، وأحاط علمه بكل شيء.

ولـو تجاوزنـا هذا العـالم الغريب المليء بالعجائـب الدالة على قـدرة خالقه وعظمتـه ، وولجنا عالماً آخراً مليء بالأسرار والعجائب، هو عالم الحيوانات، - بفصائله المتعددة التي تتجاوز المليونين فصيلة، بميزاتها، وصفاتها، ودقائق خلقها، فإنّا لا يسعنا الخوض في غماره إلا عابرين، مستطرقين، ومتعجلين، لأن الاستغراق يقودنا - بلا شك - إلى الضياع في متاهاته، والغرق في رماله، لسعته، وعظم إثاراته.

ولنتوقـف قليـلاً عند واحد من تلـك الموجودات الكثيرة، وهو النحـل، ولنتأمل في بعض جوانب خلقه، وأسراره المليئة بالعجائب والغرائب.

فعـالم النحل عالم يكتنز الكثـير من الألغاز التي حيّرت عقول العلـماء والمختصين وأذهلتهم، رغم بساطة مظهر رواده، ودقة خلقهم، وعدم اكتراث الكثيرين بهم.

بلى فإن في التأمل في نظام حياة النحل، والقوانين التي تحكم حياته، لمن الأمور التي كانت وما زالت تحير الألباب، وتثير التعجب والاستغراب.

فالنحـل يعيش كالإنسـان في مجتمعات منظمة، ويكـوّن ممالك خاصة به، وهي ما تسـمى بالخلية، وحيـث ينقسـم الموجودون في هـذه الخلية إلى جماعات وأصناف، تناط بـكلّ صنف وظيفة معينة يجب عليه الالتزام بها، والتقيد بضوابطها.

فهنـاك صنـف العمال، وصنف الذكور، وصنف الإناث أو الملـكات، وهي ترتبط فيما بينها بعلائق منسقة هدفها إقامة مملكة خاصة بهم، والمحافظة عليها.

فالصنف الأول، وهم العمال، يكمن دورهم بإنجاز الأعمال الخاصة بالمملكة، كبناء الخلية، والدفاع عنها، وجني العسل من رحيق الأزهار، ومراقبة البيوض، وتنظيف الخلية، وغيرها من الأعمال المتفرقة الأخرى، وعددهم يتراوح في كل خلية من ١٥ - ٣٠ ألفاً.

وأما الصنف الثاني، وهو صنف الذكور، فعددهم يتراوح في كل خلية ما بين ٦٠٠- ٨٠٠، وحيث تتركز وظيفتهم بتلقيح الإناث فحسب.

وأمّا الصنف الثالث في الخلية فهو صنف الإناث، وحيث تشكل سيدات الخلية، ودورهن يكمن في ولادة النحل، وتوفير النسل للخلية، وحيث تنتخب من بينهن من تكون ملكة الخلية التي ينقاد لمشيئتها الجميع دون استثناء.

ويبدو للمتأمّل دقة النظام السائد والحاكم في هذه المملكة، وبشكل مذهل ورائع، حيث تبتدئ أولى خطوات هذا الجهد العظيم من خلال تجمع عدة ألوف من النحل لتعيين ملكة لهم تدير شؤونهم، التي أولها تأسيس خلية خاصة بهم، فيشرع العمال بالبناء الهندسي الرائع، وحيث تكون الخلايا سداسية الشكل، فتبنى المساكن من الشمع الذي يفرز من كيسين يحويان مادة تخرج على شكل دموع من السطح الباطن للحلقات النصفية التي على بطون النحل، وحيث تخص بعض تلك المساكن لحفظ البيض - الذي يفقس عن نحل جديد يتولى بناء مملكة أخرى خاصة به - والبعض الآخر لإيداع العسل فيه.

إن كلّ ذلك يجري بأسلوب علمي منظم، بواسطة جماعات متخصصة، تتوزع أعمالهم بين بناء المملكة، وجمع العسل، والتبيض، لإقامة ممالك أخرى، وغير ذلك بأسلوب إداري ناجح ورائع. فمن منح النحل هذه القدرات العظيمة في صنع العسل، وبناء مساكنها الهندسية الجميلة، ومن ألهمها هذه الأساليب المعقدة في الإدارة والتنظيم والإشراف؟

بل ومن خلقها بهذه الكيفية التي تكون على شكل زغبي مسمر من شريط مستعرض سنجابي يتكون من زغب دقيق ملزز، يتميز به عن غيره من المخلوقات الأخرى؟

ثم هل لاحظت هذا الترابط الوثيق بين هذه النحلة وغيرها من الموجودات الأخرى التي تكمل كل واحدة منها عمل الأخرى، ولا تصلح بدونها، حلقات يكمل بعضها البعض الآخر فيصل الجميع إلى الغاية المناطة بهم.

فالعسل مثلاً أصله مادة سكرية تنفرز من الغدد العسلية في باطن الأزهار، ولا يمكن أن تكون هذه المادة السكرية بهذا الشكل المعروف لو لم تمتصها النحلة، وتجري عليها في معدتها عملية تغيير كبيرة تؤدي به بعد إلى أن يكون بشكله المعهود هذا، وحيث يستعمل غذاء ودواء كما هو معروف لدى الجميع.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وممّا يعرشون ثمّ كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربّك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لِقومٍ يتفكرون﴾[٢١].

ويقابل النحل في هذا النظم الدقيق - أن لم نقل أنّه يزداد عليه - عالم النمل، الذي لا يعيش إلا في مجتمعات واسعة متعاونة فيما بينها، مكونة فيما بينها شعوباً وأمماً تعيش في قرى صغيرة تتخذها مساكن لها، يسكن كل واحدة منها عدد من الذكور ذوي الأجنحة، وأنثى واحدة أو عدة إناث ذوات أجنحة كذلك، وأعداد كبيرة من النمل الذي لا أجنحة له، تنقسم إلى قسمين: العمال - وهم صغار الرؤوس - والجنود- وهم أضخم رؤوساً، وأشد قوة - يخضعون للقسم الأول منهم، وحيث يقوم العمال بجمع الغذاء، وتربية صغار النمل وتغذيتها، حين يتولى الجنود الدفاع عن مملكتهم، وشن الغارات على القرى المجاورة، والاستيلاء على ما لديهم من الغذاء، أو توسيع مملكتهم، وحيث يقتل العديد من الطرفين، أو قد يقوموا بأخذ بعض الأسرى، حيث يتخذونهم أرقاء يكلّفونهم بأداء أشق الأعمال، أو يقومون بقتلهم.

وقرى النمل تختلف فيما بينها - شكلاً وحجماً- باختلاف أنواعها، فمنها من تبنى تحت الأرض من الطين وغيره، ومنها من تكون فوق الصخور والأخشاب، وحيث تبنى بعض بتلك البيوت من بعض المواد النباتية التي أحالها النمل إلى مواد صالحة للبناء، فتؤسس فيها حجرات متعددة، لعل مخازن حفظ الأغذية من أهمها، حيث تكون مرتفعة عن غيرها خوفاً من أن يصلها الماء عند جريانه، لأنه عمد طوال فترة العام - وبالأخص فصل الصيف منه - إلى تكديس الغذاء فيها ليؤمن حياته بواسطته في فصل الشتاء.

فمن خلق هذه النملة بهذه الكيفية العجيبة التي نراها، بل ومن منحها هذه القدرات الكبيرة التي تمكنها - مثلا - من حمل وزن هو أضاف وزنها، ثم من ألهمها هذه المعرفة الكبيرة بشؤون الإدارة والنظم والتدبير.

بل أنت أخي القارئ الكريم لو تأملت مثلا أحد أنواع قرى النمل، وهو النمل الأبيض لانتابك الذهول لما تراه من التنظيم العجيب لشؤون حياته، وبناء مملكته، حتى وكأنها مملكة بشرية.

وهذا النوع من النمل يعيش في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية، وهو يصنف إلى ذكور وإناث يعملون على تكثير النسل وإدامة البقاء للنوع، ومن عمال وجنود، يؤدي كلّ واحد منهم الدور المناط به، فلو هاجم المملكة عدو لما خرج لمقاتلته غير المحاربين المقاتلين، فتدور معركة تجري فيها عين

الخطط البشرية، من الاستطلاع، إلى المناوشة، إلى الهجوم بكتائب يتقدمها بعض القادة الميدانيين، حين يترقب العمال نهاية المعركة لإعادة ترميم ما دمرته هذه الحرب.

كما أنه تشرف على إدارة شؤون المملكة ملكة يكن لها الجميع الطاعة والاحترام، ويحيطونها بالحراس والجنود، ويكدّسون الطعام في غرفها – التي تكون أكبر حجماً، وأكثر اتساعاً، وأجمل زخرفة – ويتولون الاعتناء ببيوضها وصغارها بشكل عجيب.

فترى هذا الصنف من العمال يمضغ الطعام ثم يناولها لهؤلاء الصغار، ويتولى نقلهم من حجرة إلى حجرة بحثاً عن الدفء والأمان، كما يواظب على إخراجهم بأوقات خاصة إلى خارج المملكة لترويضهم، وغير ذلك من الاهتمامات المختلفة.

وأمّا قراهم فتراها مرتفعة عن الأرض بشكل يصل في بعض الأحيان إلى المترين، وبشكل مخروطي تعلوها قباب محكمة البناء.

فمن يمتلك القدرة لأن يخالف عقله ويذهب إلى القول بنفي وجود إله عظيم ومقتدر أحكم هذا الخلق، وأتقن بناءه، وأعطى كل شيء هداه، فتبارك الله رب العالمين.

ولا ينحصر هذه الأمر المثير للتساؤل في هذه الحدود، وضمن أبعادها قطعاً، فالمرء في استقرائه لغيرها من المشاهدات الكثيرة التي لا يسعه حصرها وعدها فإنه سيجد نفسه بلا شك في متاهات واسعة من الأسرار والحكم الربانية الجمة، والتي لابد لها من أن تدفعه رغماً عنه في الاستغراق والإطناب الكبيرين، والذي يستوعب – بلا شك – فيه مساحات شاسعة من البحث والتدبر، وليس مبحثنا هنا – وضمن حدوده المرسومة – ليستوعب بعضاً منها، ناهيك عن جميعها.

بلى فلو تأمّل المرء في الخلق والنظم الغريب المتناسب مع المحيط الذي تتعامل معه بعض المخلوقات الحية لأدرك بوضوح جلي الحكمة الإلهية المدبرة التي أتقنت صنعه، ورسمت مسالكه.

فهل تأملت في عالم الطيور، وكيفية أجسادها المتناسبة مع حياتها،

نظرة في عالم الحيوان بل وكيفية طيرانها، وما هي وسائلها في الطيران، وحيث اعتمدته شركات الطيران في تصميمها لطائراتها.

بل لابد للمرء من أن ينتابه الذهول وهو يتأمل أسراب الطير المختلفة وهي تهاجر في مواسم معينة، ونحو بقاع معينة، ولآلاف الكيلومترات، بظروف جوية غير مواتية، دون بوصلة أو خريطة تقودها نحو هدفها، فلا تتوقف، ولا تتلكّأ، فمن ألهمها هذه المعرفة الكبيرة، والإدراك الدقيق، وبهذه الكيفية الرائعة.

ويصدق عين هذا الحال على السمك في موارد كثيرة، كأشكاله الغريبة والمتنوعة، وصفاته

وخصائصه الغريبة، ومنها هجرة بعض أنواعه نحو أماكن خاصة، وبظروف عسرة شاقة، ولمسافات شاسعة نائية، وهو ما حير العلماء والباحثين، ولسنين طويلة من البحث والمتابعة.

بل وغير ذلك مما لا يسعنا هنا، وفي هذه العجالة استعراضه، وتناول بعض أبعاده، تاركين ذلك للقارئ الكريم، محيلينه على الموسوعات المختصة التي أولت هذه المواضيع اهتماماً خاصاً مصدره تخصصها فيها.

ومن ثم فإن هذه التجوال المتقطع بين بعض أسرار الخلق - الدالة على وحدانية خالقها ومدبرها - يفتح الباب على مصراعيه أمام طلاب المعرفة والباحثين عن الحقيقة من خلال التأمل المتدبر والفاحص - المبتني على أسس وقواعد علمية سليمة ثبتت صحتها وصوابها بشكل قطعي - في غيرها من تلك الأبعاد التي لا يعسر على باحث تناولها بالدراسة والتفحص، لأن الإسلام يحمل في طياته الدعوات الصريحة بسلوك العلم ومساربه في إدراك الحقائق وفهمها.

ولا غرو في ذلك، فإن الاستقراء المتعجل في متون مصادر التشريع الإسلامي - وأوّلها كتاب الله تعالى - يظهر بوضوح جلي هذه الحقيقة التي ينبغي أن لا يغفل عنها أحد قطعاً، والداعية إلى تعلم العلم النافع المؤدي بالإنسان نحو الرقي والتطور، والنجاة في الآخرة بإذن الله تعالى.

قال الله تبارك وتعالى في سورة الزمر: ﴿**قُلْ هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب**﴾[٢٢].

وقال جل اسمه في سورة المجادلة: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجاتٍ والله بما تعملون خبير**﴾[٢٣].

كما إن التأمل في الأحاديث المنقولة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام يبين بوضوح الدعوة الصريحة التي تحث على طلب العلم، والتزود من معارفه، وأنه سبيل النجاة، والطريق القويم، وأن أصحابه هم السادة الذين أعد لهم الله تبارك وتعالى الثواب الجزيل، والعطاء الكبير.

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: طلب العلم فريضة على كل مسلم، ألا وأن الله تعالى يحب بغاة العلم[٢٤].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: أيها الناس اعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به[٢٥].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به، وأنه يستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر[٢٦].

وروى عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: نعم وزير الإيمان العلم[٢٧].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: العلم أصل كل حال سني، ومنتهى كل منزلة رفيعة، لذلك قال النبي صلى الله عليه وآله: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[٢٨].

وقال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: اطلبوا العلم ولو بالصين[٢٩].

بيد أن طلب العلم هذا ينبغي أن يجري وفق الأسس السليمة له، وبتوجه نحو الغايات العظيمة التي نصبت أعلاماً له، لأن في ذلك تكريس لمفهوم الغاية التي خلق الإنسان من أجلها، والتي يسعى العقلاء جاهدين لنيلها، لأن في القصور عنها إخفاق وتردي وسقوط، وانحراف واضح معلوم، وهذا ما نرى الشريعة الإسلامية تؤكده دائماً.

قال الإمام الصادق عليه السلام: من تعلم لله عز وجل، وعمل لله، دعي في ملكوت السماوات عظيماً، وقيل: تعلم لله، وعلّم لله[٣٠].

فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: الدنيا كلها جهل إلا مواضع العلم، والعلم كله حجة إلا ما عمل به، والعمل كله رياء إلا ما كان مخلصاً، والإخلاص على خطر حتى ينظر العبد بما يختم له[٣١].

بل وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: نعوذ بالله من علم لا ينفع[٣٢].

العلم بالله تعالى

يشكل هذا العلم من أهم المرتكزات الأساسية التي تقود الباحث في سعيه التفكيري والاستقرائي نحو توحيد الله تبارك وتعالى، وحيث يتمظهر هذا المسلك بأكثر من بعد ومنطلق، يتقدمه مبحث إثبات وجود الله تعالى، وهو المسلك بأكثر من بعد ومنطلق، يقدمه مبحث إثبات وجود الله تعالى، وهو ما سبق أن أشرنا إلى بعض جوانبه من قبل الإنسان - عياناً كان أو استقراء - وحيث تبدو الصورة أوضح في عصرنا الحاضر كما كانت عليه في العصور السالفة، لما سبق أن أشرنا إليه من التقدم التقني والعلمي الذي أزاح الالتباس عن بعض الموارد المشكلة، وأوضح بعض المبهمات التي أشارت بوضوح إلى وجود الخلق المدبر الكريم.

ولا يعني هذا قطعاً أن الإبهام كان يقود البشرية إبان تلك العصور السالفة في مسألة إدراك هذه الحقيقة، والقطع بها، لجهل الإنسان بالكثير من الأسرار الكونية المختلفة أماط العلم عنها ستار الحدث والافتراض، عدا ما أشار القرآن الكريم إليها، ووردت الأخبار السماوية الصحية بإجمالها.

بلى، لا نعني هذا بما ذهبنا إليه فقد يسر الله تبارك وتعالى لهذا الإنسان منذ نشأته الوسائل التي تمكنه من الوصول إلى هذه الحقيقة بيسر ودون عناء، سواء باعتماد الحس النفسي والفطري، أما بواسطة التأمل العقلائي بالموجودات المختلفة التي تحيط بأشكال ومسميات مختلفة، أو بواسطة الرسم والأنبياء عليهم السلام المتلاحقين منذ نشأة البشرية، وحتى ختموا بمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولعل من أيسر السبل التي أودعها الخالق جلّ اسمه في هذا المخلوق، والتي يستطيع بواسطتها الاسترشاد إلى معرفة خالقه وتوحيده، هي الفطرة البشرية، التي لو تركها الإنسان واسترسالها البسيط، وحتى بعيدا عن الاستقراء، والتقصي، والاستعانة بأقوال العلماء والفلاسفة والحكماء، لأقرّت بلا شك بحقيقة وجود الله تبارك وتعالى ووحدانيته.

نعم، إن الإنسان التي غشيته سحب الضلال والانحراف، وأغرق في المظاهر المادية الزائفة لا يسعه مهما كابر ونازع نفسه مغالبة فطرته المقرّة بهذه الحقيقة، والمسلمة بها، إلا أنه - وهذا مما يؤسف له - يعرض عن التصريح بها، والإذعان لمسلماتها، جرياً وراء هوى نفسه، وانحراف تفكيره المتأثر بالتفسيرات الغريبة والشاذة المنبعثة عن السقوط الأخلاقي والفكري للبعض، وفهمهم القاصر المتعثر.

بلى إنها: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[٣٣].

إن الفطرة لو تركت وشأنها لأقرت بحقيقة توحيد الله تبارك وتعالى، بيد أن أغشية الجهل هي التي تجثم عليها، وتعمي خطواتها، فتراها تتخبط، وتتعثر في بعض الأحيان.

قال رسول الله ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة[٣٤].

وقال الإمام الصادق عليه السلام، وقد سأله أحد أصحابه. عن فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها، فقال عليه السلام: التوحيد[٣٥].

ولعلّ هذا الفهم الفطري - والبعيد عن المماحكات الفلسفية والكلامية - تثيره جملة من المحفزات والمشاهدات المختلفة التي يتعامل معها الإنسان، ويتعايش مع مؤثراتها، والتي تستتبع بعض الملاحظات التي يمكن اعتمادها كوسيلة ناجحة في إدراك حقيقة ما يبحث الإنسان عنه.

ولعل ما حكاه لنا القرآن الكريم عن تأملات إبراهيم عليه السلام، واستدلالاته المنطقية لإقامة البراهين الفطرية - أمام شواهد قومه - لنفي عبادة غير الله تبارك وتعالى، ونفي الشريك له، خير شاهد لما تقود إليه التأمّلات المتدبرة الموافقة للفطرة البشرية -.التي لم تغشها سحب الجهل والضلال - في شحذ العقل البشري للتوصل إلى معرفة الله تبارك وتعالى.

قال جلّ اسمه: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلالٍ وكذلك نُري إبراهيمَ ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جنّ عليه اللّيل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننّ من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنّي بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركينَ﴾[٣٦].

ومن هنا فقد كان ولا زال للفطرة البشرية الدور الكبير في الإيمان بالله تعالى ومعرفته، يعاضده التتابع المستمر من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، حيث لم يترك الله تعالى أمّة دون أن يرسل إليها رسولاً منه، يرشدهم ويدلهم إلى عبادة الله الواحد القهار ﴿وإن من أمةٍ إلا خلا فيها نذير﴾[٣٧] وحيث عملت

رسالات أولئك الأنبياء المتتابعين إلى توضيح السبل السليمة والواضحة المؤدية إلى النجاة من التخبط والضياع، وإتماماً لحجج الله تبارك وتعالى على عباده ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾[٣٨].

وحقاً إنّ التأمل المتتبع لسيرة البشرية على طول التاريخ يوحي للمستقرئ الخبير بأن الجميع يقبلون بأصل وجود الله تبارك وتعالى، وبأشكال متفاوتة، ومسمّيات مختلفة - وإن تعمد البعض مكابرة وحمقاً الخروج عن هذا الأصل - بيد أن الخلاف حل في أصل التوحيد العبادي، وحيث أشرك البعض بالله تبارك وتعالى، فعميت عليه السبل، واضطربت به الطرق، فقادت خطاه من ضياع إلى ضياع، وأصبح من الهالكين، غير مأسوف عليه.

ألا تتأمّل في قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾[٣٩].

وقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلونَ﴾[٤٠].

وقوله جلّ اسمه: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾[٤١].

وكذا قوله تبارك وتعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحيّ ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾[٤٢].

وقوله سبحانه: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هُنّ كاشفات ضُرّهِ أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكاتُ رحمته قل حسبيَ الله عليهِ يتوكّلُ المتوكلوّنَ﴾[٤٣].

وقوله سبحانه أيضاً: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهنّ العزيز العليم﴾[٤٤].

قوله سبحانه أيضاً: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنّى يؤفكون﴾[٤٥].

إذن فالمتأمل في متون هذه الآيات المباركة وغيرها يظهر إليه بوضوح جلي أنّ أسس الخلاف العقائدي يكمن في مسألة توحيد الله تبارك وتعالى، ونفي الشريك عنه، وهو ما سنحاول لاحقاً في المباحث التالية التعرض لبعض مفرداته والتعليق عليها إن شاء الله تعالى.

التوحيد وأقسامه

يعرّف أهل العقل والنقل مصطلح التوحيد بأنه إسقاط للإضافات، وهذا التعريف يحوي في مظانه الدقة العرفانية في فهم الشكل النهائي لهذه العبارة الممثلة للعبادة الأساسية لكافة الأديان السماوية - قبل الانحراف والتحريف الذي أصاب الديانتين اليهودية والمسيحية - والتي تشكل في جميعها العمود الفقري، والأساس الأول الذي ترتكز عليه جميع العبادات الأخرى.

قال جلّ اسمه في سورة النساء: ﴿إِنّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغفِرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ ومنْ يشركْ بالله فقدْ ضلَ ضَلالا بعيداً﴾[٤٦].

وقال سبحانه أيضاً في عين السورة: ﴿وَمَنْ يُشرِك بالله فَقَدِ افترى إثماً عظيماً﴾[٤٧].

وقال جلّ اسمه في سورة المائدة: ﴿إنهُ منْ يُشرِك بالله فقدْ حَرّمَ اللهُ عَليهِ الجنّةَ وَمَأواهُ النّارُ وَما للظالمينَ منْ أنصارٍ لقَدْ كفرَ الذينَ قالوا إنّ الله ثالِثُ ثلاثَةٍ وما مِنْ إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ وإنْ لمْ يَنتهوا عمّا يقولون لَيَمَسّنّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليمٌ﴾[٤٨].

ومن هنا فإن الفهم الأولي لكلمة التوحيد تظهر بأنها أخذت أصلاً من الواحد، وهي تعني منح الوحدانية لله تبارك وتعالى، والاعتقاد بعدم وجود شريك له يشاركه في الألوهية، وما يتفرّع عنها.

كما أن المتكلّمين قد أفردوا لتفسير كلمة التوحيد مفاهيفاً يراد منها منح الوحدانية لله جلّ اسمه ذاتاً، وصفاتاً، وأفعالاً، وحيث يراد بكلّ واحدة منها جملة من الشروط والاعتقادات.

فتوحيده جلّ اسمه ذاتاً يعني نفي الشرك عنه، مشيرين إلى أنّ وجود الشريك معه في الخلق وغيره منفى لجملة بديهيات يسلّم بها العقل، ولا يختلف فيها الدليل، وحيث تعرضنا للبعض منها في مباحثنا السابقة، يضاف إليها مجهولية أي إله غير الله تبارك وتعالى من قبل أي أحد، حيث لم تر البشرية أثاراً له طوال حياتها، لا في الخلق، ولا في الإيجاد، ولا في غير ذلك، إذ لو كان هناك إله غير التبارك وتعالى لدل

على نفسـه بأي شـكل كان، بل لأرسل أنبياء ومبشرين ومنذرين وسفراء من قبله إلى البشرية، وهذا ما يشير إليه قول أمير المؤمنين‌عليه‌السلام: وأعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه...[٤٩].

ثـم لا معنـى لافـتراض وجود إلـه ضيف مع الله تبـارك وتعالى، طغـت عليه قدرته سـبحانه، فهو لا يملـك قـدرة إظهـار هويته وخالقيته، لأنه افتراض سـقيم قائـم على المغالطة، وعـلى تغريب العقل والمنطق بشـكل بيّن واضح، حيث – لو افترضنا وجود مثل هذا الإله –لا يمكن أن تدين البشرية لمثل هـذا الإلـه بالطاعة والعبادة على ضعفه وعجزه، مع وجود الإله القـوي الكامل، الذي خلق كل شيء وأتقن صنعه.

وأمّـا افـتراض التشـابه والتطابق ففيه أيضاً الكثير مـن المغالطة والمخاتلة، لأنه جـزم بأنه إله واحد لا إلهـين، حيـث أنى للعقول أن تفترض اتفاق اثنـين في كل شيء –مع اعتبارهما إلهين وخالقين – دون وجود أي اختلاف يوشي بالأثنينية، حتى ولو في أدق الأشياء، إن ذلك فرض محال، ودليل على أنه إله واحد فقط، حيث لم يبن أي اختلاف قطعاً على طول الدهور.

هذا والقول بهذا الافتراض البين السقوط يحوي الكثير من التجريح بمفهوم الألوهية، لأن الذهاب إلى أن هذيـن الإلهين قد تـأزرا واتفقا على التعاون فيما بينهما في الخلق والإيجاد، والتدبير والتقدير، يدل عـلى عجزهما عن التفرد، واحتياج أحدهما للآخـر، وهذا خلاف المنطق والمفهوم الحقيقي لمعنى الإله، ولا يسع أحد الإقرار به إلا إذا خالف جادة الصواب، وغالط عقله ومنطقه.

وأما ما يراد به من نفي التركيب عنه جلّ اسمه فهو يعني تنزيهه تعالى عن احتياجه لمركب آخر لغناه عن الحاجة إلى غيره، ويوضحه الشرح المتقدّم للفقرة السابقة.

ثم إن توحيد صفاته تعالى يعني الإيمان بأنّ الصفات الكمالية له هي عين ذاته سبحانه، وأنها ليست بصفات زائدة عليها.

قال الشيخ المظفر رحمه الله تعالى في عقائد الإمامية:

ونعتقد أن من صفاته تعالى الثبوتية الحقيقة الكمالية التي تسمى بصفات الجمال والكمال – كالعلم، والقـدرة، والغنـى، والإرادة، والحيـاة – هي كلها عين ذاته، ليسـت هي صفات زائـدة عليها، وليس وجودها إلا وجود الذات.

فقدرته من حيث الوجود حياته، وحياته قدرته، بل هو قادر من حيث هو حي، وحي من حيث هو قادر، لا أثنينية في صفاته ووجودها، وهكذا هو الحال في سائر صفاته الكمالية.

نعـم هـي مختلفة في معانيهـا ومفاهيمهـا، لا في حقائقها ووجودهـا، لأنه لو كانـت مختلفة – وهي

بحسب الفرض قديمة وواجبة كالـذات – للزم تعدد واجب الوجود، ولانثلمت الوحدة الحقيقية، وهذا ما ينافي حقيقة التوحيد[٥٠].

وهذا ما سنحاول أن نستعرض جانباً منه في المباحث اللاحقة إن شاء الله تعالى.

ثم فإنّ مراد المتكلّمين بالتوحيد أفعالاً هو نسبة جميع الأفعال إليه، سواء في الخلق، أو الموت ، أو التدبير وغيرها، ونفي الشريك عنه في جميع ذلك.

التوحيد في القرآن الكريم

المستقرئ في كتاب الله عز وجل يجد بوضوح في طياته الكثير من الآيات القرآنية المباركة المتضمنة لجملة من التعبيرات المختلفة، وبأشكال متعددة، دالة على وجود أبعاد وأقسام كثيرة لهذه الكلمة.

ومن جملة الموارد التي استعملت فيها كلمة التوحيد في القرآن الكريم هي موارد توحيد الله تبارك وتعالى في الذات والصفات، وفي أحيان أخرى توحيده جلّ اسمه في الربوبية في الأعمال المتعددة لمفهوم التوحيد.

فمن الموارد والأقسام التي أشارت إليها الآيات القرآنية المباركة المذكورة: قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿أم اتخذوا آلهةً منَ الأرضِ همّ يُنشِرونَ لوْ كانَ فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفسدنا فَسُبحانَ الله ربِّ العرشِ عمّا يصفونَ﴾[٥١].

وقوله جلّ اسمه في سورة المؤمنون: ﴿ما اتّخذَ اللهُ مِنْ ولدٍ وما كانَ معهُ من إلهٍ إذاً لذهبَ كلّ إلهٍ بما خلقَ ولعَلا بعضهُم على بَعضٍ سبحانَ الله عمّا يصفونَ﴾[٥٢].

وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿أيشركونَ ما لا يَخلُقُ شيئاً وهم يخلقونَ - ولا يَستطيعونَ لَهُم نصراً ولا أنفسهُم ينصرونَ وإنْ تدعوهُم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكُم أدعوتموهُم أمْ أنتُم صامتونَ إنّ الّذين تدعونَ منْ دونِ الله عبادٌ أمثالُكُم فادعُوهُم فليستجيبوا لكُمْ إنْ كُنتُم صادقينَ﴾[٥٣].

وقوله جلّ اسمه في سَورة الحج: ﴿يا أيّها النَاسُ ضُربَ مَثَلٌ فاستمعوا لـه إن اللذينَ تدعونَ منْ دونِ الله لن يخلقُوا ذُباباً ولو اجتمعوا لَهُ وإنْ يسلبُهُمُ الذُبابِ شيئاً لا يستنقذوهُ منهُ ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ﴾[٥٤].

وقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿واتّخذوا منْ دونِهِ آلهةً لا يخلقونَ شيئاً وهم يخلقون ولا يملكونَ لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نُشُوراً﴾[٥٥].

وقوله سبحانه في سورة يونس: ﴿قُلْ هلْ مِنْ شركائِكُم منْ يبدأُ الخلقَ ثمّ يعيدهُ قلِ اللهُ يبدأُ الخلقَ ثمّ يعيدهُ فأنى تؤفكون قلْ هلْ منْ شركائِكُم منْ يَهدي إلى الحقِ قلِ اللهُ يَهدي إلى الحقِ أفمَنْ يَهدي إلى الحقِ أحقُ أنّ يتبعَ أمن لا يَهدي إلا أن يُهدى فَما لَكُم كيفَ تَحكمونَ﴾[٥٦].

وقوله تبارك وتعالى في سورة يوسف: ﴿يا صاحبيَ السّجن أأرباب متفرقونَ خيرُ أمِ الله الواحدُ القهّارُ ما تعبُدونَ من دونهِ إلا أسماءٌ سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللهُ بها من سلطانٍ إن الحكمُ إلا لله أمرَ أنْ لا تعبدوا إلا إياهُ ذلكَ الدّين القيم ولكن أكثرَ النّاسِ لا يعلمونَ﴾[٥٧].

ففي جملة هذه الآيات المباركة وغيرها توجيه دقيق من قبل الباري عزّ وجلّ إلى دقائق أسرار التوحيد من خلال التنبيه إلى بديهيات ثابتة قد يغفل الإنسان عنها... فتراه سبحانه يذكر بأن من شواهد التوحيد هو صلاح الأرض والسماء بكل نظمهما وتدابيرهما، إذ لو كان فيهما آلهة غير الله تبارك وتعالى لفسدتا، حيث ينفرد كلّ إله بتدبير ما يدلّ به على هويته دون غيره، بل وينشىء ما يخالف به في ذلك الإله، بل ولذهب كل إله بما خلق بعيدا عن شريكه، ولعلا بعضهم على البعض الآخر.

بل ومن الشواهد الدقيقة التي يثيرها القرآن الكريم في حصر الربوبية بالله تبارك وتعالى دون أي شريك له ما حاج به المشركين من إثبات عجزهم عن أن يباروا الله تبارك وتعالى في خلق أي شيء، حتى الذباب الذي يسلبهم ما يريد فيعجزوا عن أن يستردوه، فأنى لهم خلق هذا الكون العظيم بكل ما فيه من عظمة، ونظم، وتدابير؟

ثم يستخلص القرآن إلى حقيقة ما يشكّله التوحيد من نفي التفرّق والتبعثر والتشرذم الذي توجده حالة الإشراك ونعراته الباطلة الفاسدة من خلال التعبد بآلهة متفرقين عاجزين ناقصين، يقودون أتباعهم بحمق نحو مزيداً من التنافر والتفرق، وما خاتمته إلا الخسران المبين.

التوحيد في الأحاديث والروايات

لا يخفى على مطلع بأن للتوحيد في الأحاديث والروايات المنقولة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام أبعاد وأقسام متعددة، تبين الصحيحة منها - لبطلان جملة موضوعة عن لسانهم عليهم السلام منها لمخالفتها البديهية مع هذا الأصل العبادي المهم - ماهية التوحيد، وكيفيته، وما هي أبعاده التي تترجم العبودية المطلقة لله تبارك وتعالى، ونفي الشريك عنه بكل أشكاله، وبأن طاعة الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام تنبعث أساساً من الإيمان والإقرار الفعلي بوحدانية الخالق، وعبودية ما عداه له.

بلى إن جملة الروايات والأحاديث الصحيحة المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام قد رسمت بوضوح الخطوط العامة والتفصيلية لمفهوم التوحيد، بل وحتى من خلال التفصيل الدقيق لبعض المفردات المتفرقة التي يزدحم بها هذا الأصل الكبير، والتي حاول بعض دعاة الأفكار الإلحادية - كالوثنية وغيرهم، والتي كانت رائجة آنذاك، والتي، شجعت على نموها الفلسفات المنحرفة الفاسدة الطارئة على العقيدة الإسلامية - النفوذ من خلالها لتشويه. مفهوم التوحيد، وصورته الرائعة.

ولنتأمل في بعض تلك الروايات لنستخلص جملة من ما تستبين منه حقيقة التوحيد، والتي توضحها تفسيرات أهل البيت عليهم السلام، سواء في ردّ شبهات المنحرفين، أو إزالة اللبس لدى البعض، أو في رفد الفكر الإسلامي العظيم من خلال إبانة سبل الهداية التي ينبغي أن لا يخطأها رواده، وسالكوا سبيله.

فقد روى المقدام بن شريح عن أبيه أنه قال: إن إعرابيا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين أتقول إن الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه وقالوا: يا إعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب!!

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه، فإن الذي يريده الإعرابي هو الذي نريده من القوم، ثم قال: يا إعرابي

إن القول في إن الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجلّ ووجهان يثبتان فيه.

فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى إنه كفر من قال إنه ثالث ثلاثة؟ وقول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز، لأنه تشبيه، وجلّ ربنا وتعالى عن ذلك.

وأمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل هو واحد ليس له في الأشياء شبه، كذلك ربّنا. وقول القائل أنه عز وجلّ أحدي المعنى يعني به أنّه لا ينقسم في وجود، ولا عقل، ولا وهم، كذلك ربّنا[٥٨].

وروى أبو هاشم الجعفري عن أبي جعفر محمد بن علي الثاني عليه السلام، وقد سأله عن معنى الواحد؟ فقال عليه السلام: المجتمع عليه بجميع الألسن بالوحدانية[٥٩].

وقال أيضاً: سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام: ما معنى الواحد؟ فقال: الذي اجتماع الألسن عليه بالتوحيد، كما قال الله عز وجلّ: ﴿ولئنْ سَأَلتَهُم من خلق السموات والأرضِ ليقولنّ الله﴾[٦٠][٦١].

وقال جابر بن يزيد: سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من التوحيد فقال: إن الله تباركت أسماؤه التي يدعا بها، وتعالى في علو كنهه، واحد توحّد بالتوحيد في علو توحيده، ثم أجراه على خلقه، فهو واحد، صمد، قدوس، يعبده كلّ شيء، ويصمد إليه كل شيء، ووسع كلّ شيء علماً[٦٢].

وخطب أمير المؤمنين علي عليه السلام يوماً بعد صلاة العصر فقال: <الحمد لله الذي لا يموت، ولا تنقضي عجائبه، لأنه كل يوم في شأن من أحداث بديع لم يكن، الذي لم يولد فيكون في العزّ مشاركاً، ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً، ولم تقع عليه الأوهام فتقدره شبحاً ماثلاً، ولم تدركه الأبصار فيكون بعد انتقالها حائلاً، الذي ليست له في أوليته نهاية، ولا في آخريته حد ولا غاية، الذي لم يسبقه وقت، ولم يتقدمه زمان، ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان، ولم يوصف بأين ولا بمكان، الذي بطن من خفيات الأمور، وظهر في العقول بما يرى في خلقه من علامات التدبير، الذي سُئلت الأنبياء عنه فلم تصفه بحد ولا بنقص، بل وصفته بأفعاله، ودلّت عليه بآياته، ولا تستطيع عقول المتفكرين جحده، لأن من كانت السماوات والأرض فطرته وما فيهن وما بينهن وهو الصانع لهن، فلا مدفع لقدرته، الذي بان من الخلق فلا شيء كمثله، الذي خلق الخلق لعبادته، وأقدرهم على طاعته بما جعل فيهم، وقطع عذرهم بالحجج، فعن بينة هلك من هلك، وعن بينة نجا من نجا، لله الفضل مبدئاً ومعيداً[٦٣].

وقال عليه السلام في موضع آخر: تبارك الله الذي لا يبلغه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، وتعالى الله

الذي ليس له وقت معدود، ولا أجل ممدود، ولا نعت محدود، وسبحان الذي ليس له مبتدأ، ولا غاية منتهى، ولا آخر يفنى.

سبحانه هو كما وصف نفسه، الواصفون لا يبلغون نعته... الله الواحد الأحد الصمد، الذي لم تغيره صروف الزمان، ولم يتكاده صنع شيء كان... توحّد بالربوبية، وخص نفسه بالوحدانية... عزّ وجلّ عن مجاورة الشركاء، فليس له فيما خلق ضد، ولا في ملك يد، ولم يشرك في ملكه أحد، الواحد، الصمد، المبيد للأبد، والوارث للأمد، الذي لم يزل ولا يزال وجدانياً قبل بدء الدهور، وبعد صرف الأمور[٦٤].

وقال الإمام علي بن موسى الرضاعليه السلام في إحدى خطبه: بصنع الله يستدل عليه، وبالعقول تعتقد معرفته، وبالفطرة تثبت حجته... قد جهل الله من استوصفه، وقد تعداه من اشتمله، وقد أخطأه من اكتهنه، ومن قال من فقد غياه، ومن غياه فقد غاياه، ومن غاياه فقد جزأه، ومن جزأه فقد وصفه، ومن وصفه فقد ألحد فيه، لا يتغير الله بانغيار المخلوق، كما لا يتحدد المحدود، أحد لا بتأويل عدد، ظاهر لا بتأويل المباشرة، متجل لا باستهلال رؤية، باطن لا بمزايلة، مبائن لا بمسافة، قريب لا بمداناة، لطيف لا بتجسم، موجود لا بعدم، فاعل لا باضطرار...

لا تصحبه الأوقات، ولا تضمه الأماكن، ولا تأخذه السنات، ولا تحده الصفات، ولا تقيده الأدوات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوه، والابتداء أزله...[٦٥].

وقال الإمام الصادقعليه السلام: الحمد لله الذي لا يجس، ولا يحس، ولا يمس، ولا يدرك بالحواس الخمس، ولا يقع عليه الوهم، ولا تصفه الألسن، وكل شيء حسّته الحواس أو لمسته الأيدي فهو مخلوق[٦٦].

وقال الإمام الكاظمعليه السلام مخاطبا راهباً من النصارى: إنّ الله تبارك وتعالى أجل وأعظم من أن يحد بيد، أو رجل، أو حركة، أو سكون، أو يوصف بطول أو قصر، أو تبلغه الأوهام، أو تحيط به صفة العقول[٦٧].

وقال الإمام جعفر الصادقعليه السلام: من شبه الله بخلقه فهو كافر[٦٨].

وروى الإمام عليعليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله في التوحيد: التوحيد ظاهره في باطنه، وباطنه في ظاهره، ظاهره موصوف لا يرى، وباطنه موجود لا يخفى، يطلب بكل مكان، لم يخل منه مكان طرفة عين، حاضر غير محدود، وغائب غير مفقود[٦٩].

عود على بدء

ثم إن التعرض لإيضاح المفردات الخاصة بالتوحيد وأقسامه من خلال الروايات المنقولة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، والمبثوثة في الكتب المختصة المتعددة يستدعي مزيداً من الأسهاب والاسترسال، لما نقل من التفصيلات المتكررة عنهم عليهم السلام في إيضاح هذا الأصل العبادي المهم، وتصديهم لدرء تسرب الأطروحات الإلحادية الإشراكية التي تتخاتل بها بعض الجماعات المنحرفة، والتي وجد البعض منها مواطن قدم لها في بعض كتب الفرق الإسلامية، حتى أصبحت – وذلك مما يؤسف لها – مسلمات بديهية لا تخضع للجرح والنقد من قبل ذلك البعض. ومن هنا فإنّا سنحاول هنا – وبإيجاز نافع إن شاء الله تعالى – التعرض لبعض تلك المباحث من خلال الحديث عن أقسامه المختلفة.

أقول: يقسّم المحققون الإسلاميون التوحيد إلى خمسة أقسام.

١ – التوحيد الذاتي.

٢ – توحيد الصفات.

٣ – توحيد الأفعال.

٤ – التوحيد العبادي.

٥ – التوحيد العرفاني.

والتقسم هذا بأبعاده المختلفة يعطي مفهوم التوحيد معناه الحقيقي، وشكله السليم الذي ينبغي أن يتشح به، ويتردى بأثوابه.

١ - التوحيد الذاتي

لم يعد الحديث عن هذا القسم من أقسام التوحيد بجديد ضمن الاسترسال المتوالي الذي افترضه

انسياب إشاراتنا المختلفة في العرض للإطار العام لمفهوم التوحيد، وحيث تقدّم منا القول بأن من ضوابط التوحيد المتعددة الإيمان بأنّ الله تعالى واحد أحد، لا شبيه له ولا نظير، ولا يتصور أن يكون له شريك في الملك.

وحيث يراد بذلك نفي وجود الشريك لواجب الوجود، سواء تعلق الأمر بوجوبه أو وجوده.

نعم إن الشريعة الإسلامية المباركة تقطع بوحدانية الله تبارك وتعالى، وأنه واجب الوجود الوحيد، وأنه لا واجب وجود غيره، وهذا ما تقدمت منا الإشارة إليه سابقاً في طيات أحاديثنا الآنفة.

قال الله تبارك وتعالى في سورة الأنعام: ﴿قلْ تعالَوا أتلُ ما حرّمَ ربكُم عليكم ألا تُشركوا بهِ شيئاً﴾[٧٠].

قال جلّ اسمه في سورة المائدة: ﴿لقد كفرَ الذينَ قالُوا إنّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ وما من إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ وإنْ لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنّ الّذين كفروا منهم عذابٌ أليمٌ﴾[٧١].

وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿فاطرُ السمواتِ والأرضِ جعلَ لكُم من أنفسِكُم أزواجاً ومن الأنعامِ أزواجاً يذرَؤكُم فيهِ ليسَ كمثلهِ شيء وهوَ السّميعُ البصيرُ لهُ مقاليدُ السمواتِ والأرضِ يبسطُ الرزقَ لمَنْ يشاء يقدِرُ إنّه بكلّ شيءٍ عليمٌ﴾[٧٢].

وقال عزّ اسمه في سورة الحج: ﴿حنفاءَ لله غيرَ مشركينَ بهِ ومن يُشرك باللهِ فكأنّما خرّ من السماءِ فتخطفهُ الطّيرُ أو تهوي به الريحُ في مكانٍ سحيقٍ﴾[٧٣].

وقال جلّ اسمه في سورة التوحيد: ﴿قلْ هوَ اللهُ أحدُ اللهُ الصمدُ لم يلدْ ولمْ يولدْ ولمْ يكنْ لهُ كفواً أحدُ﴾.

ولعلّ الاستقراء في هذه الآيات المباركة وفي غيرها من الآيات الأخرى يدل بوضوح على وحدانية الله تبارك وتعالى، وإنه جل اسمه وجود لا ينتهي، وأنه كبير عن التوصيف، وأنه أحدي الذات لا تركيب فيها، حيث إن التركيب يدل على الانقسام، واحتياجه إلى تلك الأجزاء، فلذا لا يتقوم إلا بها، فتكون بالتالي هناك أولويات لبعض الأجزاء على الآخر، وحيث يترتب عليها كون الجزء الأقوى والأنفذ هو الأولى بالألوهية من غيره.

فهو جلّ اسمه واحد أحد، ذاته لا تقسم ولا تجزأ، لا في الوجود الخارجي، ولا في الوجود العقلي، ولا في التصور الذهني، بل لا شبيه له، ولا يسعه التوصيف كما أسلفنا.

فقد روي أن الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام سأل أحد أصحابه ماذا تعني عبارة الله أكبر فأجابه: الله أكبر من كل شيء.

فقال لهعليه السلام: فكان ثم شيء فيكون أكبر منه؟

فأجابه: فما هو؟

فردّ عليه الإمام‰: الله أكبر من أن يوصف[٧٤].

وروي أن رجلاً قال عند الإمام الصادق‰ الله أكبر، فسأله الإمام: الله أكبر من أي شيء؟

فقال: من كل شيء.

فقال له‰: حددته!

فقال الرجل: وكيف أقول؟

فقال‰: تقول: الله أكبر من أن يوصف[٧٥].

فالإمام‰ اعترض على التعريف الذي أورده ذلك الصحابي لقوله بقياس الله تعالى مع الأشياء، حين نعلم بأنّه سبحانه لا يقاس مع شيء أبداً.

نعم ولعلّ هذه الصورة تتوضح عند استعراض بعض الروايات المنقولة عن أهل البيت‰، والمستعرضة بوضوح لمفهوم التوحيد الذاتي، ومن ذلك ما روي من أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له: ما رأس العلم؟

فقال ﷺ: معرفة الله تعالى حق معرفته.

فقال الرجل: وما حق معرفته؟

فقال ﷺ: إن تعرفه بلا مثال ولا شبه، وتعرفه آلهاً واحداً، خالقاً قادراً، أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، لا كفو له، ولا مثل له، فذاك معرفة الله حق معرفته[٧٦].

وقال أمير المؤمنين‰ في شأن وحدانية الله تعالى: الأول الذي لم يكن له قبل فيكون له شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده، والرادع اناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه، ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال[٧٧].

وروى زرارة قال: قلت لأبي جعفر‰: أكان الله ولا شيء؟

فقال‰ – نعم، كان ولا شيء.

فقلت: فأين كان يكون؟

فقال‰ – وكان متكئاً فاستوى جالساً –: أحلت يا زرارة وسألت عن المكان إذا لا مكان[٧٨].

٢ - توحيد الصفات

قد يكون في التعرض لإيضاح ما تعنيه الصفات الخاصة بالذات الإلهية من المواضيع المهمة التي أخذت من المفكرين الإسلاميين شطرا مهما في مباحثهم العقائدية المختلفة، لما يتعرض له هذا

الموضوع من إثارات واسعة تتناول الكثير من المعتقدات الدينية ذات التماس المباشر بحياة المسلمين وتعبداتهم.

نعم، يضاف إلى ذلك ما يتعلق بماهية هذه الصفات التي تتفرع إلى فروع وأقسام مختلفة تترابط فيما بينها ترابطاً يستحيل تجزئته.

وسنحاول في هذه الصفحات المحددة الإشارة المتعجلة لبعض الجوانب المختلفة لهذه الصفات المتعددة وصولاً إلى الغاية الأساسية من هذا البحث، وهو التوحيد الصفاتي.

أقول: إنّ المتكلّمين الإسلاميين عندما أثبتوا لله تبارك وتعالى هذين الصنفين من الصفات - الثبوتية والسلبية - فإنهم ابتغوا من ذلك إيضاح الكمال الصفاتي للذات الإلهية بالشكل الذي تستسيغه العقول البشرية وتتفهمه، وتصبح قادرة على إدراكه.

ولا غرابة في ذلك، فإذا كانت العقول قاصرة عن إدراك كنه الله تبارك وتعالى، فإنها في المقابل عاجزة أيضاً عن إدراك الصفات الإلهية لأنها عين ذاته وواقعها، وهذا هو حقيقة الحال، ولذا فقد عمد المفكرون الإسلاميون إلى التحدث عن الصفات المختلفة - الثبوتية والسلبية - للذات الإلهية بهذا الشكل كمحاولة منهم لترسيم بعض الوقائع المفهومة في الذهن البشري.

ثم إن في هذا التوصيف المحاكي للعقول البشرية مظهر مهم من مظاهر التوحيد الإلهي، لأنه يصف البارئ جل اسمه بجميع صفات الكمال، وتنزيهه عن النقائص والمعايب، التي لا تليق بالذات الإلهية الكاملة التي خلقت وأبدعت كل شيء بمنتهى الدقة والتنظيم والترتيب.

وأخيرا فإن مجمل الصفات الإلهية في المنظور الإسلامي تنقسم إلى قسمين اثنين:

١ - الصفات الثبوتية .

٢ - الصفات السلبية .

ولا يخفى على مطلع ما تحويه هذه الصفات من دلائل كبيرة واسعة، سنحاول بإذن الله تعالى التعرض لبعض جوانبها بشكل مختصر موجز، مبتدئين ذلك بلمحة منتقاة من جملة الأحاديث والروايات المنقولة عن أهل بيت النبوة عليهم السلام المبينة لجملة من الأبعاد الخاص بهذا الموضوع المهم.

قال الإمام علي عليه السلام في خطبة له بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتسعة أيام. الحمد لله الذي أعجز الأوهام أن تنال إلا وجوده، وحجب العقول عن أن تتخيل ذاته في امتناعها من الشبه والشكل، بل هو الذي لم يتفاوت في ذاته، ولم يتبعض بتجزئة العدد في كماله، فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن، وتمكن منها لا على الممازجة، وعلمها لا بأداة لا يكون العلم إلا بها، وليس بينه وبين معلومه علم غيره، أن قيل (كان)

فعلى تأويل أزلية الوجود، وإن قيل (لم يزل) فعلى تأويل نفي العدم، فسبحانه وتعالى عن قول من عبد سواه واتخذ إلهاً غيره علواً كبيراً(٧٩).

وقال الإمام علي بن موسى الرضاعليه السلام: من شبه الله بخلقه فهو مشرك، ومن وصفه بالمكان فهو كافر، ومن نسب إليه ما نهى عنه فهو كاذب.

ثم تلا قوله تعالى: ﴿إنّما يَفتَري الكذبَ الذينَ لا يؤمنونَ بآياتِ اللهِ وأولئكَ همّ الكاذبون﴾(٨٠)(٨١).

وروي أن الحسين بن خالد قال: سمعت الرضا علي بن موسىعليه السلام يقول: لم يزل الله تباركَ وتعالى عالماً قادراً حياً قديماً سميعاً بصيراً، فقلت له: يا بن رسول الله، إن قوماً يقولون أنّه عزّ وجلّ لم يزل عالماً بعلم، وقادراً بقدرة، وحياً بحياة، وقديماً بقدم، وسميعاً بسمع، وبصيراً ببصر.

فقالعليه السلام: من قال بذلك ودان به فقد اتخذ مع الله آلهة أخرى، وليس من ولايتنا على شيء، ثم قالعليه السلام: لم يزل الله عزّ وجلّ عالماً قادراً حياً قديماً سميعاً بصيراً لذاته، تعالى عمّا يقول المشركون والمشبهون علواً كبيراً(٨٢).

وأجاب الإمام عن سؤال أحد أصحابه: أخبرني عن الله تبارك وتعالى لم يزل سميعاً بصيراً عليماً قادراً؟

فقالعليه السلام: نعم(٨٣).

وسُئل الإمام الصادقعليه السلام عن التوحيد فقال: هو عزّ وجلّ مثبت موجود، لا مبطل ولا معدود، ولا في شيء من صفة المخلوقين، وله عزّ وجلّ نعوت وصفات، فالصفات له، وأسماؤها جارية على المخلوقين، مثل السميع البصير والرؤوف الرحيم، وأشباه ذلك. والنعوت نعوت الذات لا تليق إلا بالله تبارك وتعالى، والله نور لا ظلام فيه، وحي لا موت فيه، وعالم لا جهل فيه، وصمد لا مدخل فيه، ربّنا نوري الذات، حي الذات، صمدي الذات(٨٤).

وقال الإمام عليعليه السلام: أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيم فقد ضمه، ومن قال علام فقد أخلى منه. كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد إذ لا سكن يأنس إليه ولا يستوحش لفقده. أنشأ الخلق إنشاء، وابتدأه ابتداء، بلا روية أجالها،

ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها. أحال الأشياء لأوقاتها، ولائم بين مختلفاتها، وغرز غرائزها وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها(٨٥).

وقال عليه السلام: ما وحّده من كيّفه، ولا حقيقته أصاب من مثّله ، ولا إياه عنى من شبّهه، ولا صمده من أشار إليه وتوهمه، كل معروف بنفسه مصنوع، وكل قائم في سواه معلول، فاعل لا باضطراب آلة، مقدر لا بجول فكر، غني لا باستفادة، لا تصحبه الأوقات، ولا ترفده الأدوات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أزله.

بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له(٨٦).

الصفات الثبوتية

تعرف هذه الصفات بصفات الكمال والجمال، وهي صفات لازمة للذات الإلهية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تصور نقصها أو انتفائها، لأن حصول أي من هذين الفرضين المحالين اثبات النقص في الذات الإلهية، وهذا هو المحال.

بلى وإن محاليته هذه تنبعث أساساً من إدراكنا بأن الخالق والصانع تبارك وتعالى مطلق الكمال الذي لا يعتريه النقص ولا الاختلاف، فلابدّ والحال هذه من أن تكون صفاته - التي هي في الواقع نفي لاضدادها دالة على منتهى الكمال له، كالقدرة التي ينافيها العجز، العلم الذي يضاده الجهل، والحياة التي يخالفها الموت، وغيرها من الصفات المختلفة، الأخرى التي سنحاول أن نستعرض جانباً منها.

ثم إن التعدد الذي نتصوره لهذه الصفات ليس إلاّ تعدد بالمفهوم والمعنى فقط، دون التعدد الحقيقي أو الحيثي أو الوجودي، لأنّ تعددها هنا هو عين وحدتها، حيث إننا لو قلنا بأنّه تعالى عالم فإنّا نعني بأنّه عالم وقادر وحي وغير ذلك من الأوصاف التي يشكّل تعددها عين وحدتها، وافتراض اختلافها الوجودي يلزم تعدد الخالق جل اسمه، وهو ما لا تقول به العقيدة الإسلامية، لتصريحه بالشرك.

ومن هنا فإنّ المرء عندما يتعرض لإيضاح أي صفة من صفات الله تبارك وتعالى، فإنّ ذلك لا يعني تجزئة لمجموع الصفات قطعاً، بل هو تعرض تخصيصي لمفهوم عام يستوعب جميع الصفات الأخرى.

قال أستاذنا العلاّمة الطباطبائي رحمه الله تعالى في رسالة الأسماء ما نصه: أن الذي نفهمه من قولنا علم زيد، وقولنا علم الله معنى واحد، وهو انكشاف ما للمعلوم عند العالم، غير إنا نعلم أن علم زيد إنّما هو بالصورة الذهنية التي عنده، وإن الله سبحانه يستحيل في حقه ذلك، إذ لا ذهن هناك، وهذه

ليست إلا خصوصة في المصداق، وهي لا توجب تغيراً في ناحية المعنى بالضرورة.

فـإذن المفهوم واحد، وأما خصوصيات المصاديق فغير دخيلة في المفهوم البتة، وهذا هو الحق الذي عليه أهل الحق.

فإذن الميزان الكلي في تفسـير أسمائه سـبحانه وصفاته تخلية مفاهيمها عن الخصوصيات المصداقية، وبعبارة أخرى عن الجهات العدمية والنقص[٨٧].

بلى وأن التوحيد الصفاتي في العقيدة الشيعية يقطع بعينية الصفات مع الذات، حيث لا تكون تلك الصفات زائدة على ذاته المقدسة، لا جنبة زائدة أو عرضية، بل إن صفاته تبارك وتعالى كذاته، لا فصل بينهما.

فصفاتنـا التـي نتصف بهـا مثل العلـم، والقدرة، وغيرهمـا لم تكن أساسـاً موجودة وثابتـة في ذاتنا البشرية، بل تتولد فينا مع الزمن والجهد والاجتهاد، ولعلها تسلب منا بعد حين لاسباب معينة، وهذا لا ينطبق على الصفات الإلهية، ولا يمكن افتراضه.

إذن فإنا – وباعتماد هذا المنطلق القويم – يمكننا هنا التعرض إيجازاً لبعض من الصفات الثبوتية لله تبارك وتعالى، والتي يمكن إجمالها بما يلي:

١ – إن الله تبارك وتعالى قادر مختار.

٢ – إنّه تعالى عالم حكيم.

٣ – إنّه تعالى قديم أزلي.

٤ – إنه تعالى مدرك.

٥ – إنه تعالى حي.

٦ – إنه تعالى مريد كاره.

٧ – إنه تعالى متكلم.

٨ – إنه تعالى صادق.

وقبـل أن نحـاول اسـتعراض كلا من هذه الصفات بشـكل مختـصر ميسر لابد لنا من الإشـارة إلى حقيقة يجب أن لا تغرب عن ذهن القارئ الكريم، وهي أن مجمل صفات الله تبارك وتعالى على ضربين أو نوعين:

١ – صفات الذات.

٢ – صفات الفعل .

فالصفـات الأولى تعنـي عـين ذات الله تبارك وتعالى، وهو ما سنشـير إليه لاحقاً إن شـاء الله تعالى،

وأما صفات الأفعال فهي صفات حادثة ومنتزعة من أفعال الله تبارك وتعالى، وحيث لا يمكن القول بقدمها لأن ذلك قول بقدم العالم، ولقد كان الله تبارك وتعالى ولم يكن أي شيء مذكورا، وحيث كان سبحانه ولم يكن قبل الخلق خالقا، ولا قبل الحياة محيياً، ولا قبل الإماتة ميتاً، بل كان جل وعلا قادرا على الخلق والإحياء والإماتة، وعالماً وأزلياً، وغير ذلك من صفاته الذاتية التي على خلاف صفات الفعل، حيث يلزم النقص بانتفائها.

ثمّ إن صفات الأفعال على خلاف صفات الذات لإمكان اتصاف البارئ جلّ اسمه فيما يخص صفات الأفعال باضدادها، على خلاف صفات الذات التي لا يمكن أن يتصف باضدادها.

ألا ترى إنه جلّ اسمه بصفات الأفعال خالق لفلان وغير خالق لذرية له، بل ومحييا لزيد ومميتا لعمرو، وغير ذلك من المتضادات التي لا يعني اتصاف الله تعالى بها نقص في الذات الإلهية.

وللشيخ المفيد أعلا الله تعالى مقامه تصريح مبسط يتناول أبعاد هذا الموضوع ننقله عن كتابه القيم الموسوم بتصحيح الاعتقاد، يقول فيه: صفات الله تعالى ضربين:

أحدهما منسوب إلى الذات، فيقال: صفات الذات.

وثانيهما منسوب إلى الأفعال، فيقال: صفات الأفعال.

والمعنى في قولنا صفات الذات: إن الذات مستحقة لمعناها استحقاقاً لازماً لا لمعنى سواها.

ومعنى صفات الأفعال: هو أنها تجب بوجود الفعل، ولا تجب قبل وجوده.

فصفات الذات لله تعالى هي الوصف له بأنه حي، قادر، عالم، ألا ترى إنّه لم يزل مستحقاً لهذه الصفات ولا يزال.

ووصفنا له تعالى بصفات الأفعال كقولنا. خالق، رازق، محيي، مميت، مبدئ، معيد، ألا ترى أنه قبل خلقه الخلق لا يصح وصفه بأنه خالق، وقبل إحيائه الأموات لا يقال إنّه محي، وكذلك القول فيما عددناه.

والفرق بين صفات الأفعال وصفات الذات أن صفات الذات لا يصح لصاحبها الوصف بأضدادها، ولا خلوه منها، وأوصاف الأفعال يصح الوصف لمستحقها بأضدادها، وخروجه عنها.

ألا ترى إنه لا يصح وصف الله تعالى بأنه يموت، ولا بأنّه يعجز، ولا بأنه يجهل، ولا يصح الوصف له بالخروج عن كونه حياً عالماً قادراً، ويصح الوصف بأنه غير خالق اليوم، ولا رازق لزيد، ولا محيي لميت بعينه، ولا مبدئ لشيء في هذه الحال، ولا معيد له. ويصح الوصف له جل وعزّ بأنّه يرزق، ويمنع، ويحيي، ويميت، ويبدئ، ويوجد، ويعدم، فثبتت العبرة في أوصاف الذات وأوصاف الأفعال، والفرق بينهما ما ذكرناه[٨٨].

ولنحاول أن نستعرض بشكل موجز ما يختص بكل صفة من هذه الصفات الثبوتية، ثم ننتقل منها إلى الصفات السلبية التي تشكل القسم الثاني من صفات الله تبارك وتعالى.

١ - إنّه جلّ اسمه قادر مختار:

قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة : ﴿قالَ أعلمُ أنّ اللهَ على كلّ شيءٍ قدير﴾[٨٩].

وقال جلّ اسمه في سورة آل عمران: ﴿واللهُ على كلّ شيءٍ قديرٌ﴾[٩٠].

وقال في نفس السورة: ﴿إنّ اللهَ على كُلّ شيءٍ قديرٌ﴾[٩١].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وهوَ على كلّ شيءٍ قديرٌ﴾[٩٢].

وقال عزّ من قائل في سورة إبراهيم: ﴿ألَمْ ترَ أنّ اللهَ خلقَ السّمواتِ والأرضِ بالحقّ أنّ يشأ يذهبكُم ويأتِ بخلقٍ جديدٍ وما ذلكَ على الله بعزيز﴾[٩٣].

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿إنَما قولَنا لَشيءٍ إذا أردناهُ أنّ نقولَ لهُ كنْ فيكونُ﴾[٩٤].

وقال سبحانه في سورة الكهف: ﴿وكانَ الله على كُلّ شيءٍ مُقتَدِراً﴾[٩٥].

وقال تبارك اسمه في سورة النور: ﴿يخلقُ الله ما يشاءُ إنّ اللهَ على كل شيء قدير﴾[٩٦].

وقال تبارك وتعالى في سورة فاطر: ﴿وما كانَ اللهُ ليعجزَهُ من شيءٍ في السموات ولا في الأرض إنّه كانَ عليماً قديراً﴾[٩٧].

وقال سبحانه وتعالى في سورة يس: ﴿إنما أمرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقولَ لَهُ كُنْ فيكونُ﴾[٩٨].

وقال تعالى اسمه في سورة الفتح: ﴿وكانَ الله على كلِ شيءٍ قديراً﴾[٩٩].

وقال تبارك وتعالى في سورة القمر: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كَلَمحٍ بالبصرِ﴾[١٠٠].

أقول: تشير هذه الصفة إلى إنّه تبارك وتعالى قادر على فعل أي شيء، وقادر على كل شيء، وتنفي عجزه سبحانه عن فعل ما يمكن أن تتصوره العقول أو لا تتصوره، إنّها إشارة إلى قدرة مطلقة لا تحدّها حدود، ولا تعتريها الفترة والذبول.

بلى إن افتراض العجز عن أي شيء دليل النقص، وهو منفي قطعاً، ويدل عليه ما لا إحصاء له من الشواهد الكونية، والدلائل المنظورة وغير المنظورة الدالة على عظمة قدرة الله تبارك وتعالى، والتي أشرنا إليها آنفا عند حديثنا عن الأدلة المصرحة بوجود الخالق المدبر العظيم الواحد.

ثم أن الله تبارك وتعالى في جميع أفعاله حرا مختارا، غير مضطر إلى فعلها أو التي تركها بأي حال من الأحوال.

قال العلامة الحلّي رحمه الله تعالى في كتاب كشف المراد: إن القدرة هي قوة به يكون للفاعل سلطان

على فعله، إيجاداً وإعداماً، طبقا لعلمه، وهي فيه تعالى عين ذاته، وفينا كيفية قائمة بالنفس، تختلف من حيث ظهور أثرها باختلاف الآلات الداخلية والخارجية.

وأما الاختيار فهو لازم القدرة، بل عينها، وهو بحسب المفهوم ما يقتضي تساوي الفعل والترك للفاعل في قبال الإيجاب الذي لا يكون الترك في وسع الفاعل معه، والامتناع الذي لا يكون الفعل في وسعه معه[١٠١].

ثم إن ما ذهب إليه المعتزلة من إنه جلّ اسمه لا يقدر على فعل القبيح والشر، لأن ذلك على حدّ زعمهم استلزام نسبة الظلم لله تبارك وتعالى، افتراض باطل ساقط، لأن القدرة على فعل الظلم لا تعني بأي حال من الأحوال نسبة الظلم إلى ذلك المقتدر، فالقدرة على الشيء لا تعني بالضرورة فعله، لا يتحدد هذا التصوّر بالله جل اسمه - وهو مصدر الكمالات - بل يتعلّق بالإنسان أيضاً كما هو معلوم.

فأي إنسان يمتلك القدرة على فعل الشر والقبيح، بيد أن المتقين من عباد الله الصالحين تراهم، ورغم قدرتهم كغيرهم على فعل القبائح، يمتنعون عن فعل تلك الموبقات والجرائر التي تسيء إليهم في الدنيا والآخرة، فهل ترى نسبة هذه القدرة إليهم ظلم يعلق بهم؟ إن ذلك خلاف الصواب.

وإذا كان هذا الأمر لا يليق نسبته إلى عباد الله الصالحين، المطيعين لأوامره، والمنتهين عن نواهيه، فكيف بالله تبارك وتعالى الحكيم الخبير، الذي أمر بفعل الحسن والامتناع عن فعل القبيح؟

ولا تتوقف معارضتنا في فهم القدرة وتفسيرها لدى المعتزلة فحسب، بل تتعداها إلى التفسير الغريب الذي يذهب إليه الأشاعرة من نسبة فعل الشر لله سبحانه وعلا عن ذلك علوا كبيرا، لاستلزامه نسبة فعل القبيح لأفعال الله تبارك وتعالى وهو مناف للحكمة والعلم الإلهيين اللذين يعتبران من الصفات الثبوتية له جل اسمه، فإنه تبارك اسمه لا يصدر منه إلا الحسن الجميل رغم قدرته على فعل القبيح.

بلى إن هذا الافتراض يحمل في طياته ظلم وتجاوز كبيرين على الذات الإلهية المقدسة، حيث ان من المعلوم الثابت كون المتقين والصالحين من عباد الله المخلصين يشار إلى مجاهدتهم أنفسهم في التنزه عن فعل قبيح أو شر يصدر عنهم لما فيه من منقصة واضحة للتقوى والإيمان، فكيف بالله نقبل ذلك على الله تبارك وتعالى؟!

٢ -إنه تعالى عالم حكيم:

قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿**وهو بكل شيء عليم**﴾[١٠٢].

وقال أيضاً: ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾[١٠٣].

وقال أيضاً. ﴿والله سميع عليم﴾[١٠٤].

وقال أيضا: ﴿واعلموا أنّ الله بكل شيء عليم﴾[١٠٥].

وقال أيضا: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾[١٠٦].

وقال أيضا: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾[١٠٧].

وقال أيضا: ﴿والله بكل شيء عليم﴾[١٠٨].

وقال جل اسمه في سورة آل عمران: ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض﴾[١٠٩].

وقال أيضا: ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾[١١٠].

وقال أيضا: ﴿إن الله بما يعملون محيط﴾[١١١].

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾[١١٢].

وقال أيضا: ﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾[١١٣].

وقال أيضا: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً﴾[١١٤].

وقال تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السّموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾[١١٥].

وقال أيضا: ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾[١١٦].

وقال سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾[١١٧].

وقال جل اسمه في سورة التوبة: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأنّ الله علام الغيوب﴾[١١٨].

وقال تعالى في سورة الرعد: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكلّ شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء عليكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف باللّيل وسارب بالنهار﴾[١١٩].

وقال جلّ اسمه في سورة النحل: ﴿والله يعلم ما تسرّون وما تعلنون﴾[١٢٠].

وقال تعالى في سورة الحج: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السّماء والأرض إن ذلك في كتاب إنّ ذلك على الله يسير﴾[١٢١].

وقال سبحانه في سورة لقمان: ﴿إن الله عنده علم السّاعة، وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾[١٢٢].

وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً﴾[١٢٣]

وقال جلّ اسمه في سورة المؤمنون: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي ا لصدور﴾[١٢٤].

وقال سبحانه في سورة الحجرات: ﴿إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون﴾[١٢٥].

وغير ذلك من الآيات المباركة الكريمة التي لا يعسر على أحد إحصاؤها والتقاطها من طيات الكتاب العزيز.

والواضح الجلي أن المراد بهذه الصفة كونه جل اسمه عالما بجميع الأشياء علماً شاملاً مطلقاً، قبل وجود الأشياء وبعده، كما يعلم بخفايا الصدور وخواطر الصدور.

قال العلامة الحلي في شرحه لتجريد الاعتقاد: استدل على كونه تعالى عالما بوجوده ثلاثة:

الوجه الأول: إنه تعالى فعل الأفعال المحكمة، وكل من كان كذلك فهو عالم.

الوجه الثاني: إنه تعالى مجرد كل مجرد عالم بذاته وبغيره.

الوجه الثالث: إن كل موجود سواه ممكن، وكل ممكن فإنه مستند إلى الواجب، إما إبتداء أو بوسائط، وإن العلم بالعلة يستلزم العلم بالمعلول، والله تعالى عالم بذاته، فهو عالم بغيره.

وقال رحمه الله تعالى. الوجه الأخير من الأدلة الثلاثة الدالة على كونه تعالى عالماً يدل على عمومية علمه بكل معلوم، وتقريره إن كلّ موجود سواه ممكن، وكل ممكن مستند إليه، فيكون عالماً به، سواء كان جزئياً أو كلياً، وسواء كان موجودا قائما بذاته أو عرضاً قائماً بغيره، وسواء كان موجودا في الأعيان أو متعقلاً في الأذهان، لأن وجود الصورة في الذهن من الممكنات أيضاً فيستند إليه، وسواء كانت الصورة الذهنية صورة أمر وجودي أو عدمي ممكن أو ممتنع فلا يعزب عن علمه شيء من الممكنات، ولا من الممتنعات، وهذا برهان شريف قاطع[١٢٦].

وقال الشيخ المفيد رحمه الله تعالى في أوائل مقالاته. إن الله تعالى عالم بكل ما يكون قبل كونه، وإنّه لا حادث إلا وقد علمه قبل حدوثه، ولا معلوم وممكن يكون معلوما إلا وهو عالم بحقيقته، إنه سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وبهذا اقتضت دلائل العقول، والكتاب المسطور، والأخبار المتواترة عن آل الرسول صلى الله عليه وآله وعليهم، وهو مذهب جميع الإمامية[١٢٧].

كما أن حكمته جل وعلا تبدو بوضوح من خلال التأمل بالمفردات المختلفة التي تحيط بنا، وندرك جانبا من أسرارها، حيث نرى بجلاء كيف إنه سبحانه قد وضع الأشياء في محلها بشكل - ينتفي منه

السفه والظلم الذي يعاب على ما يرتبه البشر في جوانب حياتية مختلفة، وتركه القبيح مع قدرته تعالى على فعله، وغير ذلك من الدلائل المختلفة.

روى محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام وقد سأله عن قول الله عزّ وجلّ ﴿يعلم السرّ وأخفى﴾[١٢٨] فقال عليه السلام: السر ما كتمته في نفسك، وأخفى ما خطر ببالك ثم نسيته[١٢٩].

وقال أحد أصحابه عليه السلام: الحمد لله منتهى علمه، فقال عليه السلام: لا تقل ذلك، فإنه ليس لعلمه منتهى[١٣٠].

وسأله ابن حازم: هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله عز وجل؟ فقال عليه السلام: لا، بل كان في علمه قبل أن ينشئ السماوات والأرض[١٣١].

وقال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في دعاء له. سبحان من خلق الخلق بقدرته، وأتقن ما خلق بحكمته، ووضع كل شيء منه موضعه بعلمه، سبحانه من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير).[١٣٢]

٣ - إنه تعالى قديم أزلي، وباق أبدي:

تعني هذه الصفات إن الله تعالى لم يسبق بعلة، ولا يعتريه العدم بأي حال من الأحوال، فهو سبحانه الأول بلا أول يكون قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، حيث لو كان عكس ذلك لدل على وجود مؤثر يوجده، أو قادر يعدمه، وهو فرض محال، لأن من ينطبق عليه ذلك ممكن الوجود، والله جل اسمه واجب الوجود، علة وجوده ذاتية لا تنفصل عنه، فهو سبحانه غني بذاته عمن سواه قيوم دائم، ويدل على بقائه دليل وجوب وجوده تبارك وتعالى.

قال الله سبحانه في سورة الرحمن: ﴿كل من عليها فان* ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[١٣٣].

وقال جل اسمه في سورة القصص: ﴿ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كلّ شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾[١٣٤].

قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: الحمد لله الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين، المدبر بلا وزير، ولا خلق من عباده يستشير، الأول غير مصروف، والباقي بعد فناء الخلق[١٣٥].

وقال عليه السلام: الحمد لله الذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه... ليس له في أوليته نهاية، ولا لاخريته حدّ ولا غاية، الذي لم يسبقه وقت، ولم يتقدمه زمان، الأول قبل كل شيء ولا قبل له، والآخر بعد كل شيء ولا بعد له[١٣٦].

وقال عليه السلام: هو الأول قبل كل شيء لم يزل، والآخر بعد كل شيء لا يزال[١٣٧].

وقال الإمام السجادعليه السلام في أحد أدعيته: الحمد لله الأوّل قبل الإنشاء والإحياء، والآخر بعد فناء الأشياء[١٣٨].

وقال الإمام الصادقعليه السلام:... إلاّ رب العالمين، فإنه لم يزل ولا يزال واحداً، هو الأول قبل كل شيء، وهو الآخر على ما لم يزل[١٣٩].

٤ - إنه تعالى مدرك:

والمراد بهذه الصفة إن الله تبارك وتعالى مدرك جميع ما تدركه الحواس، إلا إن ذلك يكون من دون جارحة وحاسة مدركة، وذلك لأنه ممتنع في حقه تعالى، كما تقدم منا آنفاً.

بلى إن إدراك الله تعالى لكافة المحسوسات لا يكون كإدراكنا نحن بواسطة الحواس الخمس المعروفة لدينا، وأما وصفه تعالى بالسميع البصير مع تساوي جميع التحسسات الأخرى فلعله لما تمتاز بها هاتان الحاستان من اللطف وقربهما من الإدراك العقلي كما يذكر.

بيد أن المراد بجميع ذلك غير التجسيم المخالف للشريعة الإسلامية، والذي وقع به المجسمة.

٥ - إنه تعالى حي.

وصفه تعالى بالحي إشارة إلى إنّه عالم قادر، ولا تعني قطعاً ما يفهم من ظهور صفات الحياة من الحس والحركة والنمو وغيرها عليه، فإن ذلك ممتنع عن الله تبارك وتعالى، بل المراد بها ما ذكرناه من العلم والقدرة، حيث أن اتصافه تعالى بهاتين الصفتين تؤكدان بالضرورة كونه حياً، لأن الثابت لدينا إنّ ثبوت الصفة فرع عدم استحالتها كما هو معروف.

٦ - إنّه تعالى مريد كاره:

لّما أمر الله تبارك وتعالى عباده بطاعته، وامتثال أوامره، فإنه بذلك مريد لتلك الطاعة منهم، وباختيار منهم لا على سبيل الحتم والجبر.

كما إنه جلّ وعلا كره لعباده المعصية ومخالفة أوامره، فهو مريد كاره في هذا الجانب المختص لعباده، وإن كان هناك من يفسر ذلك بإرادته لافعاله جلّ اسمه الدالة على علمه الموجب لوجود الفعل في وقت دون آخر، وتغليب صفة على صفة مع قدرته على فعل كل شيء.

هذا من جانب ومن جانب آخر ترى إن البارئ جلّ اسمه يترك إيجاد الحوادث في بعض الأوقات دون البعض الآخر، حين يكون مقتضى القدرة صلاح الترك في جميع الأوقات، وهو ما يراد بالكراهة من هذا الجانب.

٧ - إنه تعالى متكلّم.

قال الله تبارك وتعالى في سورة النساء: ﴿وكَلّمَ الله موسى تكليماً﴾[١٤٠].

والتكلّم مـن قبل الله تبارك وتعالى لا يعني صدوره عنه بواسـطة جارحة اللسـان، لأنّه تعالى منزّه عن ذلك لما فيه من التجسـيم بوجود حلق وفم ولسـان، كما هي الحال عند الإنسان، بل المراد به قدرته سبحانه على إيجاد هذا الكلام وصدوره عن أي موجود يختاره، سواء كان إنساناً، أو حيواناً، أو شجراً، أو نباتاً، أو جماداً.

إن الخالق جلّ اسـمه بقدرته العامة ينطق تلك الموجودات فتسـمع من يريد سـبحانه إسـماعه، كما قرأنا في القرآن الكريم عن شجرة الطور التي كلّمت موسى عليه السلام.

قـال تعالى في سـورة القصـص: ﴿فلمّا أتاها نوديَ من شـاطئ الوادي الأيمن في البقعـة المباركة من الشجرة أنْ يا موسى إنّي أنا الله ربّ العالمينَ﴾[١٤١].

بـلى فـإنّ الله تبـارك وتعالى أوجـد هذه الحـروف - بهـذه اللغة التـي يفهمها موسـى عليه السلام - في هذه الشـجرة فنطقـت بما أراد سـبحانه قوله لنبيه، فإنّه جلّ اسـمه يقول: ﴿وَما كانَ لِبَـشَر أنْ يُكَلّمهُ الله إلا وحياً﴾[١٤٢].

٨ - إنّه تعالى صادق:

الكـذب قبيح بذاته، وهو صفة ذميمة، والله تعالى منزه عن ارتكاب القبائح لكمال ذاته، فيسـتحيل ذلك عليه تعالى، لأن الصدق كمال والكذب نقص.

قال تعالى في سورة النساء. ﴿وَمَنْ أصدَقُ مِنَ الله حديثاً﴾[١٤٣].

وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ أصدَقُ منَ الله قيلاً﴾[١٤٤].

وإباحـة الكذب للمخلوقين في موارد الإصلاح يراد منها ارتـكاب أقل المحذورين، لعجزهم عن دفـع مـا يترتب من قول الصدق في بعض الموارد، وهذا لا يصـدق على الله تعالى لأنه لا يوصف بعجز أبداً.

الصفات السلبية

وتعـرف أيضـا بصفـات الجـلال، ويـراد بها جملـة الصفـات الممتنعة عـلى الله تبارك وتعـالى، لأنها صفات نقص لا تتوافق مع صفات الذات الإلهية الكاملة، وقد أشـار العلماء إلى جملة متعددة من تلك الصفات، نذكر منها:

١ - الشريك.

٢ - الاحتياج.

٣ - التركيب والتجزئة.

٤ – الرؤية.

٥ – الشبه.

٦ – الجسمانية.

٧ – الحوادث والعوارض.

٨ – الحلول والاتحاد.

٩ – فعل القبيح.

ولعلنا إذا استعرضنا بعض جوانب هذه الصفات المقدمة على صفات الكمال الثبوتية – لأن دفع المضرة أولى من جلب المنفعة كما هو معروف – فإنّا سنجد أنفسنا في متاهة كبيرة، ومخاضات واسعة، لأن الغرض من إثبات الصفات السلبية هو نفي كل نقص – وبأي شكل كان – عن الذات الإلهية، وحيث لا يمكننا أن نحصرها لأن الحصر قد يتجاوز بعض صفات النقص التي لم يطلها هذا التصور والاستقصاء، وهذا ما تجده من بعض الاختلافات في الموارد الخاصة بذكر هذه الصفات.

وسنحاول هنا التعرض لجملة الصفات السلبية التي ذكرناها بشكل مختصر عاجل دون الاسهاب والتفصيل.

١ – الشريك: وهذه الصفة السلبية من المباحث التي تقدم عنها الحديث كثيراً في طيات صفحات كتابنا السالفة، فلا نعيد.

٢ – الاحتياج: لما كان الله تبارك وتعالى واجب الوجود لذاته، وغني بنفسه غير محتاج إلى غيره في أي شيء، وحيث كان سبحانه ولم يكن شيئاً مذكوراً، وصنع كل شيء فالكل محتاج إليه ولا حاجة له بغيره، لأن المحتاج إليه أولى بالتقدم على المحتاج، فلا يمكن أن يكون الخالق تعالى محتاج إلى غيره، وهذا الأمر أوضح من أن يحتاج معه إلى دليل.

٣ – التركيب والتجزئة: تقدم منا آنفا القول بأن المركب بحاجة إلى من يركّبه، وهو منفي عن الذات الإلهية، لأن المركّب أقدر من المركّب وأولى بأن يسوده ويتقدّم عليه، لحاجة الثاني إلى الأول.

وكذا هو الحال بالنسبة إلى الأجزاء، حيث لا يمكننا افتراض تركيبه من أجزاء كما هو في الإنسان مثلاً لأنّ في ذلك إقرار باحتياج الذات الإلهية إلى جزء من أجزائها وذلك الاحتياج يعني تقدم الجزء المحتاج إليه على باقي الأجزاء، وأولية طاعته على غيره.

قال العلامة الحلّي: إن وجوب الوجود يقتضي نفي التركيب أيضاً، والدليل على ذلك إنّ كل مركب مفتقر إلى أجزائه لتأخره وتعليله بها، وكل جزء من المركب فإنّه مغاير له وكل مفتقر إلى الغير ممكن، فلو كان الواجب تعالى مركباً كان ممكناً هذا خلف، فوجوب الوجود يقتضي نفي التركيب.

واعلم أن التركيب قد يكون عقلياً وهو التركيب من الجنس والفصل، وقد يكون خارجياً كتركيب الجسم من المادة والصورة، وتركيب المقادير وغيرها، والجميع منتفٍ عن الواجب تعالى لإشراك المركبات في افتقارها إلى الأجزاء، فلا جنس له ولا فصل له ولا غيرهما من الأجزاء الحسية والعقلية[١٤٥].

٤ - الرؤية: يعد هذا المبحث من المباحث المهمة التي تخالف فيها الإمامية المشبهة والأشاعرة وغيرهم من الذين ذهبوا إلى إمكان رؤية الله تباركَ وتعالى بأوقات مختلفة فيما بينهم، حيث تذهب الإمامية إلى نفي إمكان الرؤية في الدنيا والآخرة، مستدلين بأدلة قاطعة من القرآن والسنة المطهرة، وبجملة أمور من بديهيات المنطق والتفكير الاستدلالي.

فالمرئي لابد من أن يكون جسماً وذا صورة ليمكن رؤيته، والله تبارك وتعالى منزه عن ذلك لما ذكرناه من صفاته الثابتة له.

ألا ترى إن الرؤية للشيء تعني الإحاطة به من قبل نظر الناظر والله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ألا إنّهُ بكلِ شيءٍ محيطٌ﴾[١٤٦] فكيف يمكن للمحيط أن يكون محاطاً؟

ثمّ ألم تمر علينا كريمة قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يُدرِكُ الأبصارَ وهوَ اللّطيف الخبيرُ﴾[١٤٧].

وقوله جلّ اسمه: ﴿يسألُكَ أهلُ الكتابِ أنْ تنزلَ عليهم كتاباً من السماءِ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرِنا الله جهرةً فأخذتْهُمُ الصاعقةُ بظُلمِهم﴾[١٤٨].

بل وقوله تعالى: ﴿ولمّا جاءَ موسى لميقاتِنا وكلّمه ربّه قال ربّ أرِني أنظُر إليكَ قالَ لنْ تراني ولكن انظُر إلى الجبلِ فإن استقر مكانهُ فسوفَ تراني فلما تجلى ربّهُ للجبلِ جعلهُ دكاً وخرّ موسى صعقاً فلمّا أفاقَ قالَ سُبحانَكَ تُبتُ إليكَ وأنا أوّل المؤمنين﴾[١٤٩] كيف أن البارئ جلّ اسمه نفى إمكان الرؤية بقوله ﴿لنْ تراني﴾ ثمّ قرن تلك الاستحالة باستحالة استقرار الجبل إذا تجلى له ربّه كما هو معلوم.

روى عبد الله بن عباس في قوله تعالى: ﴿فلمّا أفاقَ قالَ سُبحانَكَ إنّي تُبتُ إليكَ وأنا أوّلُ المؤمنينَ﴾ قال يقول: سبحانك تبت إليك من أن أسألك رؤية، وأنا أول المؤمنين بأنك لا ترى[١٥٠].

روي إن رجلاً من الخوارج دخل على أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام وقال له: يا أبا جعفر، أي شيء تعبد؟

فأجابه عليه السلام: الله تبارك وتعالى.

فخاطبه الخارجي: رأيته؟

فقال عليه السلام: لم تره العيون بمشاهدة العيان، ورأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا

يدرك بالحواس، ولا يشبه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالعلامات...[(١٥١)].

وسأل رجل الإمام علي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك؟

فقال عليه السلام: ويلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، ويلك أن ربّي لا يوصف بالبعد ولا بالحركة ولا بالسكون، ولا بالقيام، قيام انتصاب، ولا بجيئة ولا انتصاب، لطيف اللطافة لا يوصف باللطف، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، رؤوف الرحمة لا يوصف بالرقة، مؤمن لا بعبادة، مدرك لا بمجسة، قائل لا باللّفظ، هو في الأشياء على غير ممازجة، خارج منها على غير مباينة، فوق كل شيء فلا يقال شيء فوقه، وأمام كل شيء ولا يقال له أمام، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل، وخارج منها لا كشيء من شيء خارج. فخر السائل مغشياً عليه[(١٥٢)].

وقال الإمام الرضا عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾[(١٥٣)]: لا تدركه أوهام القلوب فكيف تدركه أبصار العيون[(١٥٤)]!!

ودخل أبو قرّة المحدث على الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وسأله عن جملة مسائل ثم انتقل منها إلى التوحيد فقال مخاطباً الإمام عليه السلام: إنّا روينا إنّ الله عزّ وجلّ قسم الرؤية والكلام بين اثنين، فقسم لموسى عليه السلام الكلام، وقسم لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم الرؤية.

فقال الإمام الرضا عليه السلام: فمن المبلغ عن الله عزّ وجلّ إلى الثقلين - الجن والأنس -: ﴿**لا تدركهُ الأبصارُ وهو يدركُ الأبصارَ**﴾ و﴿**لا يحيطون بشيءٍ من علمهِ**﴾[(١٥٥)] و﴿**لَيسَ كمثلهِ شيءً**﴾[(١٥٦)]، أليس محمّد صلى الله عليه وآله وسلم؟

قال: بلى.

فقال له الإمام عليه السلام: فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقول: لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولا يحيطون بشيء من علمه، وليس كمثله شيء، ثم يقول: أنا رأيته بعيني، وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر!! أما يستحيون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي عن الله بشيء ثم يأتي بخلافه من وجه آخر!!

فقال أبو قرّة: فإنّه يقول: ﴿**وَلَقَدْ رآه نزلةً أخرى**﴾[(١٥٧)]؟

فقال الإمام عليه السلام: إنّ بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى، حيث يقول سبحانه: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾[(١٥٨)] يقول: ما كذب الفؤاد محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى فقال: ﴿**لقدْ رأى من آيات ربه الكبرى**﴾[(١٥٩)] فآيات الله غير الله، وقد قال: ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾[(١٦٠)] فإذا رأته الأبصار فقد أحاط به العلم، ووقعت المعرفة.

فقال أبو قرة: فتكذب الروايات؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: إذا كانت الروايات مخالفة القرآن كذبت بها، وما أجمع المسلمون عليه أنه لا يحيط به علم، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء[١٦١].

٥ - الشبه: لا خلاف بأن الله تبارك وتعالى لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، حيث دلّ سبحانه على ذلك بقوله جلّ اسمه: ﴿ليسَ كمثلِهِ شيءٌ﴾[١٦٢] حيث أنه تعالى صانع كل شيء وخالقه فبالضرورة يخالف الصانع مصنوعاته كما هو معروف وثابت.

٦ - الجسمانية: لمّا كان الجسم خاضع للإيجاد والمكان، وذلك محال على الله تبارك وتعالى، وحيث يقبل أي جسم التحديدات الثلاثة المعروفة، وهي الطول والعرض والارتفاع، فالعقيدة الإسلامية تجزم باستحالة هذا الفرض على الله جلّ اسمه.

٧ - الحوادث والعوارض: يُراد بالحوادث ما يطرأ من الصفات والتغيّرات المختلفة مثل اللذة والألم، والفرح والغضب، والقيام والقعود، والصبا والشباب والكهولة، والرضا والسخط، وغيرها من الأعراض التي يتغيّر بها من حالة إلى أخرى، وهذه جميعها من مختصات الممكنات لا واجب الوجود، وحيث تجري على الأجسام المخلوقة دون الذات الإلهية، وهي بالتالي دليل العجز والنقص المنزه عنها الله جلّ شأنه.

والدليل على امتناعها عن الله تبارك وتعالى كما يقول العلامة الحلي:

إن حدوث الحوادث فيه تعالى يدل على تغيّره وانفعاله في ذاته، وذلك ينافي الوجوب، وأيضا فإن المقتضي للحادث إن كان ذاته كان أزلياً، وإن كان غيره كان الواجب مفتقرا إلى الغير، وهو محال، ولأنه إن كان صفة كما استحال خلو الذات عنه، وإن لم يكن استحال اتصاف الذات به[١٦٣].

وأما الأوصاف المختلفة الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة لبعض الصفات التي توهم بطروء هذه الحوادث والعوارض فإنها تحمل على إن المراد بها غاياتها ونتائجها لا مبادئها.

فغاية الغضب هو العقاب، وغاية الرضا الثواب والإكرام، وغير ذلك من التأويلات المختلفة التي تتفق مع عقيدة التوحيد الصافية.

روي أن عمرو بن عبيد - الذي يعد من متكلمي المعتزلة وشيوخهم - دخل يوماً على الإمام الباقر عليه السلام وخاطبه قائلاً: جعلتُ فداك، قول الله عزّ وجلّ: ﴿ومَنْ يحلّل عليه غضبي فقد هوى﴾[١٦٤] ما ذلك الغضب؟

فقال عليه السلام: هو العقاب يا عمرو، إنّه من زعم إنّ الله عزّ وجلّ قد زال من شيء إلى شيء فقد وصفه

صفة مخلوق، إن الله عزّ وجلّ لا يستفزه شيء ولا يغيره[١٦٥].

وروي أن رجلاً سأل الإمام الصادقعليه السلام عن الله تبارك وتعالى له رضا وسخط، فقالعليه السلام: نعم، وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين، وذلك لأنّ الرضا والغضب دخال يدخل عليه فينقله من حالٍ إلى حالٍ، لأنّ المخلوق أجوف متعمل مركّب للأشياء فيه مدخل، وخالقنا لا مدخل للأشياء فيه، واحد أحدي الذات وأحدي المعنى، فرضاه ثوابه، وسخطه عقابه، من غير شيء يتداخله فيهيجه وينقله من حالٍ إلى حالٍ.

فإن ذلك صفة المخلوقين العاجزين المحتاجين، وهو تبارك وتعالى القوي العزيز، لا حاجة به إلى شيء ممّا خلق، وخلقه جميعاً محتاجون إليه، إنما خلق الأشياء من غير حاجة ولا سبب، اختراعاً وابتداعاً[١٦٦].

٨ - الحلول والاتحاد: يراد بالحلول وجود الشيء في محل ما يحتويه ويحل داخله، وبالاتحاد صيرورة شيئين بواسطة الاتحاد شيئاً واحداً.

وهذين التصورين الفاسدين اخترعتهما الفرق المنحرفة فكرياً كقول بعض رواد الكنيسة بأنه جلّ شأنه حال في المسيحعليه السلام، وقول بعض فرق الصوفية بأنّه تعالى حال في إجساد بعض العارفين، والتصوران باطلان ومنفيان عن الذات الإلهية المقدسة.

ذكر العلامة الحلي في رده على أصحاب الحلول: وهذا المذهب لا شك في سخافته، لأن الصقول من الحلول قيام موجود بموجود آخر على سبيل التبعية، بشرط امتناع قيامه بذاته، وهذا المعنى منتف في حقه تعالى لاستلزامه الحاجة المستلزمة للإمكان[١٦٧].

ويعلّق الشيخ مغنية على القول بالحلول حيث يقول: ولو حل في شيء لكان في حاجة إلى المحل الذي حل فيه، وكل محتاج حادث وممكن.

وأما القول بالاتحاد فلا يعدو الخرافة والسفسطة الساقطة، لأن غنى الله تبارك وتعالى عن جميع مخلوقاته ثابت وقطعي فكيف يفتقر سبحانه إلى غيره وغيره فقير إليه!! ثم إن حصول ذلك يعني نفي الوجوب وتحوله إلى الإمكان، لأن اتحاده مع غيره دليل على كون هذا الغير ممكناً وسريان الحكم الصادق على واجب الوجوب فيكون مثله ممكناً، وذلك أمر واضح السقوط.

٩ - فعل القبيح: يستحيل على الله تبارك وتعالى فعل القبيح، حيث أن بواعث هذا الفعل لا تخلو عن واحدة من الأسباب التالية: أما الجهل بأنّ ما يفعله قبيح، أو الحاجة والاضطرار لذلك الفعل، أو السفه والجهل والعبث، وجميعها ممتنعة عن الله تعالى كما هو معروف وثابت، وتقدم منا الحديث عنه في أكثر من مورد.

التوحيد الصفاتي في القرآن الكريم

لـو تأمّلنا في بعض الآيات القرآنيـة المباركة لعاينا بوضوح تكرار التوحيد الصفاتي لله تبارك وتعالى فيه، وبأشكال متعددة، تنفي مشابهة أي شيء له جلّ شأنه.

فمـن ذلـك قوله تعالى في سـورة التوحيد: ﴿قلْ هوَ اللهُ أحـدُ اللهُ الصمدُ لمْ يلدْ ولم يولـدْ ولمْ يكنْ لهُ كفواً أحَدُ﴾.

ففي هذه الآيات المباركة تأكيد جلي على وحدة صفات الله تبارك وتعالى، وأنها عين ذاته، بحيث لا يمكن أن نفصلها عنها، فجميع هذه الصفات تشير إلى الإله الواحد جل شأنه.

وقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ليسَ كمثلِهِ شيء وَهُو السّميعُ البصير﴾[١٦٨].

فالآيـة المباركـة هذه تقطع بأنه ليس هناك شـبيه له جلّ اسـمه، فهو واحد أحد متفرّد في شـأنه وفي صفاته.

قال الإمام الصادقعليه السلام: سـبحان من لا يحدّ ولا يوصف، ولا يشـبهه شيء، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير[١٦٩].

وقوله تبارك وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَما قدَروا اللهَ حقّ قدرهِ﴾[١٧٠].

روي عن الإمام الصادقعليه السلام قوله: إن الله لا يوصف بعجز، وكيف يوصف وقد قال في كتابه ﴿وَما قدروا الله حقّ قدرهِ﴾ فلا يوصف بقدر إلا كان أعظم من ذلك[١٧١].

وقـال جـلّ شـأنه في سـورة الإسراء: ﴿قـلِ ادعـوا اللهَ أو ادعـوا الرحمن أياً مـا تَدعوا فلَهُ الأسـماء الحسنى﴾[١٧٢].

روى الطبرسي رحمه الله تعالى في تفسـيره: إن الله تبارك وتعالى خاطب رسـولهصلى الله عليه وآله أن قل للكافرين ﴿ادعـوا الله أو ادعوا الرّحمن... ﴾ أي أن أي شيء من أسـمائه تدعونه بـه كان جائزاً، فإن معنى ﴿أو﴾ في قولـه ﴿أو ادعـوا الرحمـن﴾ الإباحة، أي أن دعوتم بأحدهما جائـزاً، وأن دعوتم بهما كان جائزاً، فله الأسـماء الحسنى... بين سـبحانه في هذه الآية إنه شيء واحد، وإن اختلفت أسماؤه وصفاته، وفي الآية دلالة على إن الإسم عين المسمى[١٧٣].

نعـم إنّ هـذه الآية الكريمة تبيّن بوضوح جلي أنّ أسـماء الله تبارك وتعـالى تنطبق على صفاته، وأنها عين ذاته المقدسة.

التوحيد الصفاتي في الروايات

المطالعـة في متـون بعض الروايات المنقولة عن أهل بيت العصمةعليهم السلام تظهر التأكيد القاطع بوجوب

عدم فصل صفات الله تبارك وتعالى عن ذاته المقدسة، وتغلظ في ذلك أيّما تغليظ.

قال الإمام علي عليه السلام في خطبةٍ له: أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه...[١٧٤].

فالواضح الجلي من هذه الخطبة أن الإمام علي عليه السلام يؤكّد بأن صفات الله تبارك وتعالى هي عين ذاته المقدسة، وليست زائدة عليها، وفصل هذه الصفات عن الذات الإلهية انحراف عن جادة الصواب، وخلاف صريح مع العقيدة الإسلامية المباركة.

وقال الإمام السجّاد علي بن الحسين عليه السلام مخاطباً أحد أصحابه: يا أبا حمزة، إن الله لا يوصف بمحدودية، عظم ربّنا عن الصفة، فكيف يوصف بمحدودية من لا يحد، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار؟![١٧٥]

وكتب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى أحد أصحابه: إن الله أعلا وأجلّ وأعظم من أن يبلغ كنه صفته[١٧٦].

وسأل هشام بن الحكم الإمام الصادق عليه السلام عن أسماء الله تعالى واشتقاقاتها، الله هو مشتق؟

فقال عليه السلام: يا هشام، الله مشتق من إله، وإله يقتضي مألوهاً، والاسم غير مسمى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك وعبد اثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد، أفهمت يا هشام؟

قال: زدني.

قال عليه السلام: لله تسعة وتسعون اسماً، فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها إلهاً، ولكن الله معنى يدل عليه بهذه الأسماء، وكلها غيره، يا هشام، الخبز اسم للمأكول، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحرق، أفهمت يا هشام فهماً تدفع به وتناضل به أعداءنا المتخذين مع الله عزّ وجلّ غيره؟

قلت: نعم[١٧٧].

وقال إبان الأحمر للإمام الصادق عليه السلام: أخبرني عن الله تبارك وتعالى لم يزل سميعاً بصيراً عليماً قادراً؟

قال: نعم.

فقلت له: إن رجلاً ينتحل موالاتكم أهل البيت يقول: إن الله تبارك وتعالى لم يزل سميعاً بسمع،

وبصيراً ببصر، وعليماً بعلم، وقادراً بقدرة.

قال: فغضب عليه السلام ثمّ قال: من قال ذلك ودان به فهو مشرك، وليس من ولايتنا على شيء، إن الله تبارك وتعالى ذات علامة سميعة بصيرة قادرة[١٧٨].

٣ - التوحيد الأفعالي

ويراد به توحيد الفعل، أي أن كل هذا العالم، بدقائقه وتفصيلاته من فعل الله الواحد الأحد، بل وكل الأعمال، والتأثيرات، والحركات وغيرها هي صادرة عن إرادة الله تبارك وتعالى، فلا مؤثر في الوجود إلا هو جلّ شأنه.

نعم إنّ التوحيد الافعالي في نظر الشيعة ينطلق أساساً من اعتبار كون المؤثر الحقيقي في العالم هو الله سبحانه، وكل سبب له تأثير وهذا التأثير من أمره جلّ شأنه، فهو الذي أعطى النار قابلية الإحراق، والشمس النور، والماء القوة الحياتية.

إن الإنسان مهما بلغ به الرقي والتطور التقني لا يسعه إلا أن يتكئ على الله تبارك وتعالى في أفعاله، وبأشكال وصور مختلفة لا تخفى على الباحث والمتخصص، حيث أن الله تعالى مستقل في أفعاله، متفرد في إنجازها، خلقاً، وتدبيراً، وغير ذلك، وذلك هو النفي القطعي لوجود الشريك معه جلّ وعلا.

والتأمل المتدبر في مظاهر هذا النوع من التوحيد يجدها تتجلى بوضوح في الأقسام التالية:

١ - التوحيد في الخلق.

٢ - التوحيد في الربوبية.

٣ - التوحيد في المالكية والحاكمية التكوينية.

٤ - التوحيد في المالكية التشريعية.

٥ - التوحيد في الطاعة.

وقد تقدم منا الحديث في طيات مباحثنا السابقة عن كل قسم من أقسام التوحيد هذه، ودللنا عليها ضمنياً.

الصفات الفعلية لتبارك وتعالى في القرآن الكريم

تكرر في القرآن الكريم ذكر صفات الفعلية لله عزّ شأنه في آياته المختلفة، حيث تدلّل كل صفة من هده الصفات على أفعال معيّنة لله تعالى، وهي كما ذكرنا آنفا صفات حادثة ومنتزعة من هذه الأفعال، فلا يمكن القول بقدمها. ومن هذه الصفات المذكورة في الكتاب العزيز:

الخالق، الخلاق، أحسن الخالقين، الفاطر، البارئ، الفالق، البديع، المصوّر، المالك، الملك، الحاكم،

الحكيم، الرب، الوليّ، الوالي، المولى، الحافظ، الحفيظ، الرقيب، المهيمن، الرازق، الرزّاق، الكريم، المجيد، الفتاح، الرحمن، الرحيم، أرحم الراحمين، الودود، الرؤوف، اللطيف، الحفي، الغافر، الغفور، العفو، الغفار، التواب، الجبار، الشكور، الشاكر، الشفيع، الوكيل، الكافي، الحسيب، سريع الحساب، أسرع الحاسبين، سريع العقاب، شديد العقاب، النصير، نعم النصير، خير الناصرين، الشهيد، الهادي، المحيي، القهّار، الغالب السلام، المؤمن، الخبير.

التوحيد الافعالي في القرآن الكريم

تكررت الآيات القرآنية التي تبين التوحيد الافعالي، وتذكر العديد من صفات الله تبارك وتعالى الفعلية.

ففي نهاية سور الحشر ورد ذكر جملة من تلك الصفات الفعلية، فقد قال جلّ شأنه. ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السّلام المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبّرُ سبحانَ الله عمّا يشركونَ هو الله الخالقُ البارِئ المصوّرُ لَهُ الأسماءُ الحُسنى﴾[١٧٩].

ففي هاتين الآيتين المباركتين وردت ثمانية صفات من صفات الله تعالى الفعلية، وهي:

الملك، السّلام، المؤمن، المهيمن، الجبار، الخالق، البارئ، المصور.

كما وردت صفات أخرى متفرقة في جملة كثيرة من الآيات المباركة، كقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿الله خالق كل شيء﴾[١٨٠] وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ألا لَهُ الحُكمُ وهُوَ أسرَعُ الحاسبينِ﴾[١٨١] وقوله جلّ اسمه في سورة يوسف: ﴿فاللهُ خير حافظاً وهو أرحمُ الراحمينَ﴾[١٨٢] وقوله سبحانه في سورة الزمر: ﴿اللهُ خالقُ كلّ شيءٍ وهو على كلّ شيءٍ وكيلّ﴾[١٨٣] وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿أأرباب مُتَفرقونَ خيرٌ أم اللهُ الواحدُ القَهارُ﴾[١٨٤] وغيرها من الآيات المباركة الأخرى.

التوحيد الافعالي في الروايات

الاستقراء في جملة من الروايات المتفرقة المنقولة يظهر الكثير من الصفات الفعلية لله تبارك وتعالى، كما في دعاء الجوشن الكبير مثلا، والذي نقله الإمام السجاد عن الرسول الأكرمﷺ، حيث يحوي – على الأظهر – على ألف صفة من صفات الله تبارك وتعالى في أقسامه المختلفة.

ففي القسم الأول منه نقرأ:

اللّهم إني أسألك باسمك يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا كريم، يا مقيم، يا عظيم، يا قديم، يا عليم، يا حكيم، يا حليم.

وفي القسم الخامس منه نقرأ:

اللّهم إنّي أسألك باسمك يا حنّان، يا منّان، يا ديّان، يا برهان، يا سلطان، يا رضوان، يا غفران، يا سبحان، يا مستعان، يا ذا المن والبيان.

وفي القسم العاشر منه نقرأ:

يا صانع كل مصنوع، يا خالق كل مخلوق، يا رازق كل مرزوق، يا مالك كل مملوك، يا كاشف كل مكروب، يا فارج كل مهموم، يا راحم كل مرحوم، يا ناصر كل مخذول، يا ساتر كل معيوب، يا ملجأ كل مطرود.

وفي القسم العشرين منه نقرأ:

يا فارج الهم، يا كاشف الغم، يا غافر الذنب، يا قابل التوب، يا خالق الخلق، يا صادق الوعد، يا موفي العهد، يا عالم السر، يا فالق الحب والنوى، يا رازق الأنام.

وكذا هو الحال في باقي الأقسام.

وقال الإمام علي عليه السلام في إحدى خطبه: فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه.

وقال عليه السلام في موضع آخر من خطبته: أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداء، بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها، أحال الأشياء لأوقاتها، ولاءم بين مختلفاتها، وغرز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها[١٨٥].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: ما بعث الله تعالى نبيّاً حتى يأخذ عليه ثلاث خصال: الإقرار له بالعبودية، وخلع الأنداد، وإن يقدم الله ما يشاء ويؤخر ما يشاء[١٨٦].

٤ - التوحيد العبادي

ليس بخافٍ على أحد أن هذا القسم المهم من أقسام التوحيد يتعلق بشكل مباشر بالعباد، حين ترى إن باقي الأقسام التي تعرضنا لها آنفاً، وهي التوحيد الذاتي والصفاتي والافعالي، ترتبط بالله تبارك وتعالى، حيث إن العبادة لله سبحانه من قبل المخلوقين.

قال الله تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَما خَلقتُ الجِنّ والأنسَ إلا ليعبدون﴾[١٨٧] حيث قرن جلّ اسمه علة خلقهم بعبادته وطاعته.

فالتوحيد العبادي بأبعاده المختلفة يشكل النموذج التعبدي الذي يسلكه الإنسان في توحيد الله

تبارك وتعالى من خلال إخلاص نيات أعماله الناتج من الفهم السليم لأقسام التوحيد المختلفة.

وعموماً فإن التوحيد من حيث الفهم العام له ينقسم إلى قسمين اثنين: التوحيد النظري والتوحيد العملي.

فالتوحيد النظري يراد به التوحيد الذاتي، والصفاتي، والافعالي، حين يراد بالتوحيد العملي التوحيد العبادي، أي إخلاص العبيد الطاعة لله تبارك وتعالى، دون اتخاذهم إلهاً سواه، أو اتخاذهم مع الله تعالى رباً آخراً، وشريكاً معه، كما كان المشركون آنذاك في عبادتهم للأصنام التي يبنونها بأيدهم ثم يتخذونها أما أرباباً من دون الله تعالى، أو واسطة للتقرب إليه كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبُدُهُم إلا ليُقرّبونا إلى الله زُلفى إنّ الله يَحكمُ بينهُم في ما هُم فيه يختلفونَ إنّ اللهَ لا يَهدي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفّارٌ**﴾[١٨٨].

وقفة مع جذور عبادة الأصنام

لعبادة الأصنام في جزيرة العرب جذور وأسس مختلفة أشار إلى جملة منها المؤرخون والباحثون في جملة العقائد التي كانت تحكم هذه الأرض التي كانت غارقة في الظلام والتخلف قبل نزول الوحي السماوي على رسول الإنسانية محمد بن عبد الله ﷺ، وحيث كانت الشعوب القاطنة هناك رهينة الأطر الخاصة بتلك الأطروحات الفاسدة.

فمن ذلك اعتقادهم بأن العقل والفكر لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينسبا إلى الذات الإلهية المباركة، وأن الإنسان أعجز من أن يتصل مباشرة بالله تعالى، لافتراضات باطلة كثيرة معروفة، فاخترعت لهم مخيلتهم العاجزة والسقيمة فكرة اتخاذ واسطة بينهم وبين الله تبارك وتعالى، واسموهم بـ(رب النوع)، وقالوا: إنّا نتخذ أولئك واسطة بيننا وبين الله تعالى.

وتفتقت مخيلتهم السقيمة عن جملة من الموجودات المتميزة بشيء خاص بها يخرجها عن المفهوم التقليدي للشكل البشري فاتخذوهم الواسطة المزعومة بينهم وبين الله تبارك وتعالى كالملائكة، والجن، والشمس، والقمر، وغيرها من الموجودات المختلفة.

ولما وجدوا أن هذه الموجودات ليست بمتناول أيديهم، ولا يباشرونها وتباشرهم اتصالاً عزفوا عنها وعمدوا إلى إقامة وسائط جديدة هي أقرب إليهم، وتطالها أيديهم.

فعمدوا إلى صنع تماثيل من الخشب أو الصخر أو المعادن واعتبروها الموجودات المقدسة التي تقربهم إلى ذات الله تبارك وتعالى، إلى الرب الذي خلق الكون، واصطلحوا على تسميته برب الأرباب.

بيد أن تقادم الدهور، والانحدار الفكري الذي أخذت تزداد حدته يوماً بعد يوم نتيجة البعد

عـن التفكر والتدبر والتأمل، قادهم إلى ما هو أسـوأ من ذلك وأبشـع، حيـث اعتبر البعض منهم تلك الأصنام التي صنعوها بأيديهم - وأسموها بأسماء اختاروها - آلهة لهم دون الله تبارك وتعالى، وهذا ما يشكل قمة الانحراف الفكري والتردي العقائدي.

ولنتأمل بعض الآيات القرآنية المباركة التي تتحدث عن الأمر الذي أشرنا إليه:

قـال جـلّ اسـمه في سـورة يونـس: ﴿ويعبدونَ مـنْ دونِ الله مـا لا يضرّهـم ولا ينفعُهـم ويقولون هـؤلاء شُـفعاؤنا عنـدَ الله قُـلْ أتُنبئونَ الله بـما لا يَعلَمُ في السـموات ولا في الأرضِ سـبحانَهُ وتعالى عمّا يُشركونَ﴾[١٨٩].

وقـال تبارك وتعالى في سـورة الشـعراء: ﴿واتـلُ عليهم نبأ إبراهيـم إذْ قال لأبيه وقومـه ما تعبدونَ قالـوا نعبـدُ أصناماً فنظلّ لها عاكفينَ قال هلْ يَسـمعونَكُم إذْ تَدعـونَ أو ينفعونكُم أو يَضرّون قالوا بل وجَدنا آباءَنا كذلك يفعلون قال أفرأيتُم ما كُنتم تعبدون أنتم وآباؤكُمُ الأقدمون فإنّهم عدوٌّ لي إلا ربّ العالمينَ﴾[١٩٠].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿أتعبدونَ ما تنحتونَ واللهُ خلقكُم وما تَعملونَ﴾[١٩١].

وقال سبحانه: ﴿أتدعونَ بعلاً وتذرونَ أحسَنَ الخالقينَ الله ربّكُم وربّ آبائكم الأولين﴾[١٩٢].

وفي سورة الزمر: ﴿فَاعبُدِ الله مخلصاً لهُ الدّينَ ألا لله الدّين الخالصُ وَالذينَ اتّخذوا من دونِهِ أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلفى إنّ الله يحكم بينهم فيما هُم فيه يختَلِفونَ﴾[١٩٣].

وقال عزّ من قائل في سـورة النجم: ﴿أفرأيتُم اللاتَ والعُزّى وَمَناةَ الثالثة الأُخرى ألَكُمُ الذّكَرُ ولَهُ الأنثى تلكَ إذاً قسمة ضيزى إنْ هي إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكُم ما أنزَلَ اللهُ بها مِنْ سلطانٍ﴾[١٩٤].

وغير ذلك من الآيات المتفرقة الكثيرة.

التوحيد العبادي في القرآن الكريم

المستقرئ في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يجد الكثير من الآيات القرآنية المباركة المنادية بالتوحيد العبادي، وسنحاول هنا استعراض جانباً محدداً منها:

١ - ففي سورة الفاتحة نقرأ: ﴿إياكَ نعبدُ﴾.

٢ - وفي سـورة الأنبيـاء: ﴿مـا أرسَـلنا مِـنْ قبلـكَ مـن رسـولٍ إلا نُوحـي إليـهِ إنّـهُ لا إلـهَ إلا أنـا فاعبدونِ﴾[١٩٥].

٣ - وفي سورة النساء: ﴿وَاعبُدوا الله وَلا تشرِكوا بهِ شيئاً﴾[١٩٦].

٤ - وفي سـورة الأعراف: ﴿لقَدْ أرسَـلنا نُوحاً إلى قومِهِ فقالَ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُهُ

إنّي أخافُ عليكُم عذابَ يوم عَظيم﴾[١٩٧].

وفيها أيضاً: ﴿وإلى عادٍ أخاهُم هوداً قالَ يا قوم اعبدوا الله ما لكُم من إلهٍ غيرُهُ أفَلا تتّقونَ﴾[١٩٨].

وفيها أيضاً: ﴿وإلى ثَمودَ أخاهُم صالحاً قال يا قَومِ اعبدوا الله ما لكُم منْ إلهٍ غيره قدّ جاءتْكُم بينةٌ من ربكُم... ﴾[١٩٩].

٥ - وفي سورة هود: ﴿وإلى عادٍ أخاهُمُ هوداً قالَ يا قومِ اعبدوا الله ما لكُم مِنْ إلهٍ غيرُهُ إنْ أنتُم إلا مفترونَ﴾[٢٠٠].

وفيها أيضاً: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا اللهَ ا من إلهٍ غيرُهُ هو أنشَأكُم من الأرضِ واستعمرَكُم فيها فاستغفروهُ ثُمّ تُوبوا إليهِ إنّ ربّي قريبٌ مجيبٌ﴾[٢٠١].

وفيها أيضاً: ﴿وإلى مدينَ أخاهُم شُعيباً قالَ يا قومِ اعبدوا الله ما لكُم من إلهٍ غيرُهُ... ﴾[٢٠٢].

٦ - وفي سورة النحل: ﴿ولقَد بعَثنا في كل أُمة رسولاً إن اعبُدوا الله واجتنِبوا الطّاغوتَ فمنهُم من هَدى الله ومنهم من حقّت عليه الضلالَةُ فسيروا في الأرضِ فانظروا كيف كانَ عاقبةُ المكذبينَ﴾[٢٠٣].

٧ - وفي سورة آل عمران: ﴿إن الله ربّي وربّكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيمٌ﴾[٢٠٤].

التوحيد الكامل في آية الكرسي

المتأمّل في آية الكرسي المعروفة يجد بوضوح وورود جميع أقسام التوحيد المتقدم ذكرها: التوحيد الذاتي والصفاتي والافعالي...

يقول سبحانه وتعالى فيها: ﴿اللهُ لا إلهَ إلا هوَ الحيّ القيوم لا تأخُذهُ سنةً ولا نوم لهُ ما في السّمواتِ والأرضِ مَنْ ذا الذي يشفعُ عندَهُ إلا بإذنهِ يعلمُ ما بينَ أيديهِم وما خلفهُم لا يحيطونَ بشيءٍ من علمهِ إلا بما شاء وسعَ كرسيّهُ السّمواتِ والأرضِ ولا يؤدُهُ حفظهُما وهُوَ العليّ العظيمُ﴾[٢٠٥].

تشير هذه الآية المباركة إلى جملة من أقسام التوحيد، فهي تتحدث أول الأمر عن قيمومة الله تبارك وتعالى والتي تعتبر من صفاته سبحانه الذاتية، وعن حكومته تعالى الكبيرة والواسعة التي تعتبر من أوصافه الفعلية.

بل وتتحدث عن علمه المطلق الذي أحاط بكل شيء، ووسع كل شيء، وعن قدرته غير المحدودة من خلال حفظه للسموات والأرض من غير تكلف ومشقة، مع إشارتها إلى خضوع كل شيء له سبحانه وعدم مبادرته للشفاعة لديه سبحانه إلا من بعد إذنه، تبارك وتعالى الله رب العالمين.

روى أبو ذر رحمه الله تعالى عن رسول الله ﷺ قوله وقد سأله: أي آية أنزلها الله تعالى عليك أعظم؟

فقالﷺ: آية الكرسي[٢٠٦].

وروى الشيخ الطوسي رحمه الله تعالى في أماليه عن أبي أمامة الباهلي إنه سمع أمير المؤمنين عليعليه السلام يقول: ما أرى رجلاً أدرك عقله الإسلام، ودله في الإسلام يبيت ليلة سوادها حتى يقرأ هذه الآية: ﴿الله لا إله إلا هو الحيّ القيّومُ﴾ فقرأ الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَلا يؤدُهُ حفظهُما وَهُوَ العليُ العظيم﴾.

ثم قال: فلو تعلمون ما هي لما تركتموها على حال، إن رسول اللهﷺ أخبرني قال: أعطيت آية الكرسي من كنز تحت العرش، ولم يؤتها نبي كان قبلي[٢٠٧].

وروي عن الإمام الصادقعليه السلام قوله: قالت الجن: إن لكل شيء ذروة وذروة القرآن آية الكرسي[٢٠٨].

وروي في كتاب الغايات أن رسول اللهﷺ سأل رجلاً وقال له: أية آية أعظم؟

فقال الرجل: الله ورسوله أعلم.

فأعادﷺ القول فأجاب: الله ورسوله أعلم.

فقال رسول اللهﷺ: أعظم آية آية الكرسي[٢٠٩].

ولنتأمّل أخيراً ما أورده الطبرسي رحمه الله تعالى في كتابه الموسوم بمجمع البيان حول تفسير هذه الآية:

قال: لمّا قدم سبحانه ذكر الأمم واختلافهم على أنبيائهم في التوحيد وغيره عقبه بذكر التوحيد فقال ﴿الله﴾ أي من يحق له العبادة لقدرته على أصول النعم. ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا أحد يحق له العبادة ويستحق الإلهية غيره. ﴿الحي القيوم﴾ قد ذكرنا الحي وأمّا القيوم فهو القائم بتدبير خلقه من إنشائهم ابتداء وإيصال أرزاقهم إليهم. ﴿لا تأخذهُ سنةٌ﴾ أي نعاس ﴿ولا نوم﴾ قيل معناه: لا يغفل عن الخلق ولا يسهو. ﴿لَهُ ما في السمواتِ والأرضِ﴾ معناه: له ملك ما فيهما وله التصرف فيهما.

﴿مَنْ ذا الذي يشفعُ عندَهُ إلا بإذنِهِ﴾ هو استفهام معناه الإنكار والنفي، أي لا يشفع يوم القيامة أحد لأحد إلا بإذنه وأمره، وذلك إن المشركين كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم، فأخبر الله سبحانه إن أحداً ممّن له الشفاعة لا يشفع إلا بعد أن يأذن الله له في ذلك ويأمره به. ﴿يَعلمُ ما بينَ أيديهِم وما خلفهُم﴾ قيل: فيه وجوه. وذكر ثلاثة وجوه تشير جميعها إلى علم الله تبارك وتعالى، والذي تقدم الحديث عنه في صفات الله تبارك وتعالى الثبوتية.

ثمّ استرسل بعد ذلك في إيضاح المراد بالكرسي، - منتقلاً منه إلى القدرة الإلهية العظيمة التي لا تحد بحد، ولا توصف بوصف[٢١٠].

التوحيد العبادي في الروايات

روى الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن الكاظمعليه السلام وقد سأله عن أدنى المعرفة، فقالعليه السلام. الإقرار بأنّه لا إله غيره، ولا شبه له ولا نظير، لأنه قديم مثبت، موجود غير فقيد، وإنه ليس كمثله شيء[٢١١].

وروي عن الإمام الصادقعليه السلام قوله: من عبد الله بالتوهم فقد كفر، ومن لم يعبد المعنى فقد كفر، ومن عبد الاسم فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي يصف بها نفسه فعقد عليه قلبه، ونطق به لسانه في سر أمره وعلانيته فأولئك هم المؤمنون حقاً[٢١٢].

وروى عبد الله بن عباس أنه جاء إعرابي إلى النبيصلى الله عليه وآله وسلم وقال له: يا رسول الله، علمني من غرائب العلم.

فقال لهصلى الله عليه وآله وسلم: ما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه؟

فقال الرجل: ما رأس العلم يا رسول الله؟

فقالصلى الله عليه وآله وسلم: معرفة الله حق معرفته.

قال: وما معرفة الله حق معرفته؟

قالصلى الله عليه وآله وسلم: تعرفه بلا مثل ولا شبه ولا ند، وأنه واحد أحد، ظاهر باطن، أول آخر، لا كفو له ولا نظير، فذلك حق معرفته[٢١٣].

وفي خطبة للزهراءعليها السلام بعد وفاة أبيهاصلى الله عليه وآله وسلم بمحضر من المهاجرين والأنصار: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شرك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكير معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته...[٢١٤].

٥ - التوحيد العرفاني

لما تناول حديثنا السابق الأقسام الأربعة الأولى من أقسام التوحيد التي تقدم منا ذكرها آنفا، فإنا نعطف في نهاية ذكر هذه الأقسام إلى القسم الأخير منها، وهو التوحيد العرفاني، توحيد أهل المعرفة، أو ما يعرف عند العرفاء بالشهود القلبي.

فقمة المعرفة الإلهية تحلق بالإنسان المؤمن إلى عوالم روحانية منسلخة عن الوجود المادي الذي يغلف المظاهر الحياتية المختلفة، ويقيدها ضمن الأبعاد المحدودة والقاصرة.

إن ذروة هذه المعرفة تقود المؤمن لأن يكون كما يقول سيدنا العلامة الطباطبائي رحمه الله تعالى برحمته الواسعة: لا يرى أحداً غير الله، ولا يريد غير الله، ولا يبحث عن غير الله، ولا يحب غير الله، وليس له خوف من غير الله، ولا أمل بغير الله، ذلك المؤمن الذي طلّق الدنيا وعزف عن شهواتها

الشيطانية، وملذاتها الزائفة الزائلة.

نعـم إن هـذا هو التوحيد الكامل الخالص الذي يحلق بالعبد في الملكوت الإلهي، ويسـمو به في عالم الروح النقي الشفاف.

ولا غرابـة في ذلـك فـإن المعرفة بالله تعالى تقود الإنسـان المؤمن إلى تجاوز الظلمات والأغشـية التي تحجبـه دون الرؤية القلبية لله عزّ وجلّ شـأنه، وترفعه درجات عالية في مسـتويات الإيمان، وعبادة الله تبارك وتعالى.

نعم فإن عبيد الله تعالى على ثلاثة أقسام كما هو معروف لدى أهل العرفان:

١ - الحسيّون.

٢ - العقليّون.

٣ - الشهوديّون.

والقسـم الثالث من هذه الأقسـام هو القسـم الذي تنثال عليه الافاضات الروحية والعرفانية التي ترفـع عنـه الموانع في طريق التحصيـل العبادي للوصـول إلى التوحيد الإلهي اليقينـي، وهو محل بحثنا هنا.

ولنتأمل بعضاً من الموارد التي تشير إلى بعض الموارد المتعلقة بهذا الموضوع:

في سورة الأنعام نقرأ قوله تعالى:

﴿وكذلكَ نريَ إبراهيمَ ملكوتَ السّماواتِ والأرضِ وليكونَ منَ المُوقِنينَ﴾[٢١٥].

فكلمـة الملكوت تعنـي في الأصل الصورة الباطنة للأشـياء، والتي يكون لها ارتبـاط قوي بالمعرفة الحقيقيـة بالله تبـارك وتعالى، حيـث أن الفهم الحقيقي لـلأسرار الكونية التي أطلـع عليها إبراهيم عليه السلام تشكل الممر الواضح الذي يقود نحو معرفة الله سبحانه، أو ما نريد به هنا اليقين.

وفي سورة التكاثر يقول سبحانه:

﴿كلا لو تعلمونَ علمَ اليقينِ لترونَ الجحيمَ ثمّ لترونَها عينَ اليقينِ﴾[٢١٦].

فظاهر الآيات المباركة إن الإنسـان يمكنه بواسـطة المعرفة أن يصل إلى مرحلة اليقين التي تمكنه من رؤية بعض الحقائق العينية، تلك الحقائق التي لا يسع غيرهم تلمسها ورؤيتها قطعا، لأن هؤلاء العباد وصلوا باجتهادهم إلى مصاف أهل الباطن، من أثر الإيمان واليقين.

ولنتأمـل شـواهد مـن أولئك الذيـن أوصلهم إيمانهـم وتقواهم ومعرفتهـم إلى هذه المنزلـة العالية الرفيعة:

روى الإمـام الصـادق عليه السلام أن رسـول الله صلى الله عليه وآله صلى بالناس الصبح، فنظر إلى شـاب في المسـجد وهو

يخفق ويهوي برأسه، مصفر لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف أصبحت يا فلان؟

قال: قد أصبحت موقناً يا رسول الله.

فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله وقال. إن لكل يقين حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟

فقال: إن يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأني أنظر إلى عرض ربّي قد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون في الجنة، ويتعارفون وعلى الأرائك متكئون، وكأني أنظر إلى أهل النار وهم في العذاب معذبون مصطرخون، وكأني أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال صلى الله عليه وآله لأصحابه: هذا عبد نوّر الله تعالى قلبه بالإيمان، ثم قال له: الزم ما أنت فيه.

فقال الشاب: أدع الله تعالى لي يا رسول الله أن أرزق الشهادة معك.

فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله، فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر، وكان هو العاشر(٢١٧).

وروي عنه صلى الله عليه وآله أنّه استقبل حارثة بن مالك الأنصاري وقال له: كيف أنت يا حارثة بن مالك؟

فقال: يا رسول الله مؤمن حقاً.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: لكل شيء حقيقة، فما حقيقة قولك؟

فقال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأت هواجري، وكأني أنظر إلى عرش ربّي وقد وضع للحساب، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة، وكأني أسمع عواء أهل النار في النار.

فقال صلى الله عليه وآله: عبد نور الله قلبه، أبصرت فأثبت(٢١٨).

ولنتوقف قليلاً عند خطبة الإمام علي عليه السلام في وصفه للمتقين الذين قادتهم خطاهم التعبّدية والإيمانية نحو هذه المنزلة العظيمة:

قال عليه السلام:... عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم في الجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم في النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون.

قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة.

أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم، ويستشيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا إنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في

أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم، وأطراف أقطامهم، يطلبون إلى الله تعالى فكاك رقابهم.

وأمّا النهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، ويقول: لقد خولطوا، ولقد خالطهم أمر عظيم، لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكّى أحد منهم خاف مما يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربّي أعلم بي مني بنفسي...[٢١٩].

نعم فإن هذه الحالة من التقوى والإيمان العرفاني تقود المؤمن لأن يحلق في عالم المعرفة التي تتجسد من خلاله المشاهدات القلبية للحقائق التي يستحيل على غيرهم إدراكها وتحصيلها.

قال الله تبارك وتعالى في سورة يوسف عليه السلام في وصف ما عليه يعقوب عليه السلام من حالة العرفان التي نتحدث عنها. ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قالَ أبوهُم إنّي لأجدُ ريحَ يوسُفَ لَولا أن تُفنّدونِ﴾[٢٢٠].

عندما أخذ أخوة يوسف عليه السلام قميصه إلى أبيه وانطلقوا من مصر حيث كانوا إلى أبيهم بوادي كنعان من أرض فلسطين (وقيل إنه كان بأرض الجزيرة) كانت المسافة بينهم مسيرة شهر على قول، وقيل إن المسافة بينهم كانت ثمانين فرسخاً.

فما أن انصرفت العير من عند يوسف عليه السلام حتى قال لهم أبوهم عليه السلام: ﴿إنّي لأجدُ ريحَ يُوسُفَ﴾ فقد حصلت له عليه السلام مكاشفة استطاع من خلالها التحسس الظاهري بتشمم ريح ولده على هذا البعد الكبير.

وسأل أحدهم الإمام الرضا عليه السلام: هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربّه عزّ وجلّ؟

فأجاب الإمام عليه السلام: نعم، بقلبه رآه، أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ما كذبَ الفؤادُ ما رأى﴾[٢٢١] لم يره بالبصر، ولكن رآه بالفؤاد[٢٢٢].

والرؤية هنا يراد بها غاية مرتبة المعرفة كما هو واضح.

وسأل ذعلب اليماني أمير المؤمنين عليه السلام: هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟

فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى؟!

قال: وكيف تراه؟

فقال عليه السلام: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان[٢٢٣].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: لولا إن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت[٢٢٤].

وقيل أن سفيان بن عيينة سأل الإمام الصادقعليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿إلا مَنْ أتى الله بقَلبٍ سليمٍ﴾[٢٢٥].

فقالعليه السلام: السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه، وكلّ قلب فيه شك أو شرك فهو ساقط[٢٢٦].

وفي المناجاة الشعبانية لأمير المؤمنينعليه السلام:

إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بقدسك[٢٢٧].

وقالعليه السلام في موضع آخر: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا[٢٢٨].

وقالعليه السلام أيضاً: إنّ قوماً عبدوا الله تعالى رغبة فتلك عبادة التجار، وإنّ قوماً عبدوا الله تعالى رهبة فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله تعالى شكراً فتلك عبادة الأحرار[٢٢٩].

وروي عن الإمام السجادعليه السلام إنه قال: إلا إنّ للعبد أربع أعين. عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته وإذا أراد به غير ذلك ترك القلب بما فيه[٢٣٠].

الأبعاد التربوية للتوحيد القرآني

لا يخفى على أحد له أدنى مطالعة في كتاب الله العزيز أن الأصل الأساسي الذي ينادي به القرآن هو التوحيد لله تبارك وتعالى ونبذ عبادة غيره، وأن يجعل له سبحانه شريك.

وذلك الأمر يراد منه توجيه الإنسان وتربيته لأن يخضع كل أفعاله الفكرية والعملية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية وغيرها للمشيئة الإلهية، وأن تكون برمتها دائرة في فلك التوحيد الأصيل الرافض لمبدأ الخضوع لغير الله تعالى، فيخلص بالإنسان من ربقة الأسر المهيمن للموجودات الناقصة والمخلوقة نحو الخضوع للكمال الإلهي، والرفعة السماوية المطلقة، فيسمو به نحو آفاق العزة والكرامة، بعيداً عن الذلّ والخنوع للمظاهر الزائفة والكاذبة التي تقوده نحو التخبّط والضياع والفشل.

والمطالعة المتأنية لمجمل الآيات التي تتناول التوحيد في القرآن الكريم تظهر بوضوح إن هذه الآيات تنقسم إلى أربعة أقسام:

١ - الآيات التي تنفي وجود الشركاء لله تعالى.

٢ - الآيات التي تثبت وحدانية الله تبارك وتعالى.

٣ - الآيات التي تشير إلى جملة المشاهدات الكونية، والحقائق المختلفة للمخلوقات المتعددة، من حيث خلقها، ونظمها، وترتيبها، والمشيرة إلى أن خالقها هو الله تبارك وتعالى، لأن لا شريك لموجود آخر معه في هذا الخلق.

٤ - الآيات المبينة لعواقب عبادة غير الله تبارك وتعالى، أو اتخاذ شريك معه.

ولنتوقف قليلاً مع هذه الأقسام مستعرضين بعض الجوانب الخاصة بها:

١ - الآيات النافية لوجود الشريك مع الله تعالى

وهـذه الآيـات كثيرة التكـرر في القرآن الكريـم، وهي تنهى الإنسـان عن إطاعـة الطواغيت ونبذ الانقيـاد لهـم، كما تنهـاه أيضاً عن عبادة غـير الله تعالى من الموجـودات الأخرى، ومنهـا الأصنام التي يصنعونها بأيديهم ويتخذونها آلهة لهم مع الله تبارك وتعالى، أو دونه.

وهـذه الآيـات المباركة تدعو الإنسـان المؤمن إلى مواجهة هذا الانحراف مـن قبل هؤلاء المشركين وعبدة الأوثان والطواغيت، وغيرهم، بل وحتى جملة الأفكار والاعتقادات المنحرفة المخالفة للتوحيد الإلهي:

أ- قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النّاسِ من يتّخذ منْ دونِ الله أنداداً يحبّونَهُم كَحُبّ الله والذين آمنوا أشـدّ حبّاً لله ولو ترى الذين ظلموا إذ يرونَ العذابَ أنّ القوّةَ لله جَميعاً وأنّ اللهَ شـديدُ العذابِ﴾[٢٣١].

الآيـة الكريمـة هذه فيها إيضاح بين لانتفـاء وجود أي إله له القوة والقدرة غـير الله تبارك وتعالى، وهـذا ما يدركـه الذين آمنوا بحيـث تراهم أخلصوا حبهـم وطاعتهم لله جلّ اسـمه خلاف المشركين الذين جعلوا مع الله شركاء يحبونهم كحبّه، وينقادون إليهم كالعميان وحيث يبين الله تعالى حالهم يوم القيامة كيف يلقى بهم في نار جهنم تحت العذاب الشديد.

ب – وقال جلّ اسمه في آخر سورة الإسراء: ﴿وقلِ الحمدُ لله الذي لم يتخذ ولداً ولمْ يكن لَهُ شريك في الملكِ ولمْ يكنْ لهُ وَليٌ منَ الذلّ وكبّرهُ تكبيراً﴾[٢٣٢].

الأبعاد التربوية للتوحيد القرآني

تشير هذه الآية المباركة إلى ثلاثة من صفات الله تعالى السلبية:

١ – أنّه تعالى ليس له ولد.

٢ – أنّه تعالى لا شريك له.

٣ – أنّه تعالى لا رفيق له ولا حامي.

فهـذه الآيـة تنفي عن الله تبارك وتعالى الولد والشرك والحامـي مخالفة لبعض العقائد المنحرفة التي تذهب إلى إن الله تعالى اتخذ ولداً كما في القول بأن عزير ابن الله من قبل اليهود، والقول بأن المسيح ابن الله من قبل النصارى، والذين يشير إليهم قول الله تعالى في سورة التوبة: ﴿وقالتِ اليهودُ عُزَيرٌ ابنُ الله وقالتِ النصارى المسيحُ ابن الله ذلك قولُهم بأفواهِهـم يُضاهِئونَ قولَ الذينَ كفَروا من قبلُ قاتلهُمُ اللهُ أنّى يؤفكونَ اتّخَذوا أحبارهم وَرُهبانَهُم أرباباً من دون الله والمسـيحَ ابنَ مريمَ وما أُمِروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إلهَ إلا هوَ سبحانَهُ عمّا يُشرِكونَ﴾[٢٣٣].

كما إن هذه الآية تنافي عقيدة المشركين الذين يعتقدون أنّ لله تعالى شريك.

نعـم إنّ في هـذه الآية توجيه دقيق إلى عبادة الله تعالى وحده، ونفي الاعتقاد المنحرف بما ذكرناه، كما إن فيها تأكيد على أنه جلّ اسمه غني عن العالمين، وليست له حاجة إلى شيء، لأنّه لا يقارن بشيءٍ، ولا يوصف به شيء.

روي أنّ الإمام الصادقعليه السلام سأل أحد أصحابه عن معنى قول (الله أكبر فقال ذلك الرجل: الله أكبر من كل شيء.

فخاطبه الإمامعليه السلام: فكان ثمّ شيء فيكون أكبر منه؟

فقال الرجل: فما هو؟

فقال له الإمامعليه السلام: الله أكبر من أن يوصف[٢٣٤].

ج – وقال جلّ اسمه في سورة الأنبياء: ﴿أمِ اتَّخذوا آلهةً منَ الأرضِ هم يُنشِرونَ لوْ كانَ فيهما آلهة إلا الله لفسدتَا فسبحانَ الله رَبِّ العرشِ عمّا يصِفونَ﴾[٢٣٥].

هذه الآية تشـير إلى واحد من دلائل التوحيد الذي يسـميه علماء الفلسـفة بـ(دليل التمانع) والذي يشـير إلى حقيقـة كون هنـاك قوانين ونظم تحكم السـماوات والأرض، وفي مرتبة ومتحدة على أسـاس قواعـد ثابتـة تدل عـلى أن المنظّم والمدبّر لهـا واحد، أي مبدئ واحـد، إذ لو كان للعـالم أكثر من مبدئ ومنظّم لما كان له نظام وترتيب واحد كما هو معلوم وأشرنا إليه آنفاً مفضّلاً.

نعـم لـو كان هناك أكثر من مبـدئ لهذا العالم لبانـت الاختلافات ضمن هذا النظـام، وظهرت فيه بوضوح أشكال التفاوت، حتى لو إنّ ذهبنا إلى تشابه الأذواق، وتطابقها.

ثـمّ إن من المفارقـات الجديرة بالاهتمام هو أن ما نـراه من الألوان المختلفـة، والأصوات المتعددة، توصـل العلـم الحديـث إلى أن لـكلٍ من هذه الألـوان والأصوات أصـل واحد، وأمـواج خاصة تدل بوضوح على أن مبدئها واحد، أوجدها بنظام واحد له تفرّعات مختلفة فحسب.

د– وقال جلّ اسـمه في سـورة النمل: ﴿أمّنْ يبدأُ الخَلقَ ثمّ يعيدُهُ ومَنْ يَرزُقُكم من السّماء والأرضِ ألهٌ معَ الله قلْ هاتوا بُرهانكُم إنْ كنتُم صادقينَ﴾[٢٣٦].

تناقـشُ هـذه الآية الكريمة المشركين بأن الخالـق والمعيد والرازق هو الله تبـارك وتعالى، وليس من يفعـل ذلك غيره سـبحانه، فهل تقبـل العقول الإقرار بإله غـيره، وغيره يُخلق ويُـرزق، وأن هذا الغير ضعيف وناقص فلا يمكن أن يتخذ إلهاً قطعاً، وما فعله المشركون إلا تخبّط وتخرّص، ساقط الدعوى، وباطـل الدليـل، وإنّ أي امرئ صاحب عقل ووجدان لا يمكن لـه أن يتقبل فكرة وجود إله آخر غير الله تبارك وتعالى.

بلى ولا غرو في ذلك، ولا يقسر الإسلام أحداً على قبول دعاواه والتسليم بها، بل كل ما يقوله قائم على الدليل والبرهان، وهو منطق القرآن الكريم، حين تجد المشركين ينتهجون سنة آبائهم الذين كانوا في ضلال مبين، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وإذا قيلَ لَهُم اتّبعوا ما أنزَلَ الله قالوا بَلْ نتّبِعُ ما ألفَينا عليهِ آباءَنا أو لَو كانَ آباؤهُم لا يعقلونَ شيئاً ولا يهتدونَ﴾[٢٣٧].

وقوله جلّ اسمه في سورة المائدة: ﴿وَإذا قيلَ لَهُم تعالوا إلى ما أنزَلَ الله وَإلى الرسولِ قالوا حسبنا ما وَجَدنا عليهِ آباءَنا أو لَو كانَ آباؤهُم لا يعلمونَ شيئاً ولا يهتَدونَ﴾[٢٣٨].

وقوله سبحانه في سورة يونس: ﴿قالوا أجِئتَنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليهِ آباءَنا وتكون لكُما الكبرياءُ في الأرضِ وما نحنُ لَكُما بمؤمنينَ﴾[٢٣٩].

وقوله سبحانه في سورة لقمان: ﴿وَإذا قيلَ لَهُم اتّبعوا ما أنزَلَ الله قالوا بلْ نتّبعُ ما وجدنا عليهِ آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾[٢٤٠].

وقوله سبحانه أيضاً في سورة الزخرف: ﴿بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مهتدون﴾[٢٤١].

وغير ذلك من الآيات المباركة الكريمة الموضحة لموقف المشركين السقيم والباهت قبال الحقائق السماوية التي تنادي بها الأديان السماوية المتلاحقة، والتي ختمت بالإسلام العظيم، وحيث ترى الأسلوب العلمي الرصين الذي يناقش به القرآن أولئك المنحرفين واضحاً من خلال اعتماد الدليل والبرهان المقنع، حين تجدهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا.

هـ- وقال تبارك وتعالى في سورة الأنبياء: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنّه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[٢٤٢].

تشير الآية الكريمة هذه إلى أن جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وعلى امتداد التاريخ، كانوا يدعون الناس إلى التوحيد ونبذ الشرك، وأنّه لا إله إلا الله سبحانه، ويجب على الناس عبادته وطاعته وحده فحسب، دون شرك بأي صورة كانت.

فأمّا ما يتخرّصه محرّفو التوراة والإنجيل من القول بالشرك فهو باطل مختلق صنعوه خدمة لمآربهم وأغراضهم الدنيوية الفاسدة المنبعثة عن نفوسهم الضالة.

و- وقال عزّ شأنه في سورة القصص: ﴿ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كلّ شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾[٢٤٣].

تذكر هذه الآية بمعرض نهيها عن عبادة غير الله تبارك وتعالى ثلاثة أوصاف خاصة به سبحانه:

١- فناء كل شيء عدا ذاته الطاهرة، وهذه الإشارة تكرّرت لمرات عديدة في القرآن الكريم كقوله

سبحانه ﴿كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[٢٤٤] وقوله تعالى: ﴿لا إله إلا هو كلّ شيءٍ هالك إلا وجههُ﴾[٢٤٥].

٢ – تخصيص الحاكمية في عالم التكوين والتشريع به تعالى.

٣ – إن المرجع الأخير لجميع العباد هو لله تبارك وتعالى.

فمن تكون بيده هذه الأمور هو الذي يستحق العبادة، خلاف من يكون مصيره الفناء، وتنعدم لديه أي حاكمية، ولا يملك أن يرجع أي شيء أو حتى نفسه، فإن من يكون ذلك شأنه لا يستحق العبادة قطعاً.

ز – وقال عزّ من قائل في سورة فصلت: ﴿قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين﴾[٢٤٦].

تأكّد هذه الآية المباركة على وجوب عبادة الله تعالى وحده ونفي الشركاء عنه جلّ شأنه، وتترجم هذه العبادة من خلال الاستقامة على جادة الصواب، وعلى الصراط المستقيم الذي يقود بسالكيه إلى النعيم الخالد في جنات الفردوس.

كما تترّجم أيضاً من خلال نبذ الشرك الذي يكون مصيره الهلاك والخسران المبين والذي تختمه الآية بالويل المنذر بالعقاب الشديد الذي ترتعش من هوله السماوات والأرضين، فكيف بالإنسان وهو الكائن الضعيف الذي يضيق باشتداد الحر، وسخونة الهواء!!

٢ - الآيات المثبتة لواحدنية الله تبارك وتعالى

كثيرة هي كما هو معلوم الآيات التي تثبت وحدانية الله جلّ شأنه، ولقد استعرضنا الكثير منها في مباحثنا السالفة، إلا إنّا سنحاول هنا الإشارة إلى جملة من هذه الآيات المباركة على سبيل الاستشهاد والاستدلال:

أ – قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض... ﴾[٢٤٧].

يتصدّر هذه الآية المباركة التصريح بوحدانية الله تبارك وتعالى، وأنّه واحد أحد لا يستحق العبادة غيره، بل له العبادة وحده لا شريك له.

كما إنّ هذه الآية المباركة تتعرض إلى أربع صفات من صفاته تعالى هي: الحي، القيوم، والذي لا تنتابه الغفلات ولا النوم، ومالكيته المطلقة للسموات والأرض وما فيهن وما بينهن.

وقد تقدّم منا الحديث عن ذلك عند حديثنا عن التوحيد الكامل في هذه الآية فراجع.

ب – وقال جلّ اسمه في سورة آل عمران: ﴿شهد الله أنّه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾[٢٤٨].

تتحدّث هذه الآية الكريمة عن أقطاب ثلاثة تشهد بواحدنية الله تبارك وتعالى، وانحصار العبادة له جلّ شأنه:

١ – الخالق نفسه تبارك وتعالى.

٢ – الملائكة.

٣ – أولو العلم.

فالنظم والتدبير والاتحاد الثابت بين جميع الموجودات التي لا عدّ لها ولا حصر، كل ذلك يشهد بوحدانية الخالق جلّ اسمه، وإنّه واحد أحد متفرد بالألوهية، لا شريك له ولا نظير.

وهذه الحقيقة القطعية يشهد بها البارئ جلّ اسمه بذاته كما تشهد بها الملائكة وأولو العلم أيضاً.

وحقيقة الشهادة – كما يقول شيخنا الطوسي رحمه الله تعالى – هي الإخبار بالشيء عن مشاهدة أو ما يقوم مقام الشهادة من الدلالات الواضحة، والحجج اللائحة على وحدانيته، من عجيب خلقه، ولطيف حكمته، في ما خلق.

وأضاف رحمه الله تعالى: وقال أبو عبيدة: معنى ﴿شهد الله﴾ قضى الله ﴿أنّه لا إله إلا هو والملائكة﴾ شهود ﴿وأولوا العلم﴾.

وقوله جل اسمه في آخر الآية ﴿قائماً بالقسط﴾ يراد به قائماً بالعدل، يجري كل شيء بالاستقامة والعدل والتدبير.

والظاهر من ذكر الملائكة والعلماء ضمن الشهادة لله تعالى بأنّه لا إله إلا هو يراد به الوجودين القولي والفعلي، فالملائكة والعلماء يعتقدون بأن الله تعالى واحد، ويترجمون هذا الاعتقاد بعبادة تخصه سبحانه وحده، فهم له وحده مطيعون، ولأوامره متبعون، وعمّا ينهى عنه هم منتهون[٢٤٩].

ج – وقال جلّ اسمه في سورة الأنعام: ﴿قلّ أغير الله أبغي ربّا وهو ربي كل شيء ولا تكسب نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربّكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾[٢٥٠].

يتصدّر هذه الآية المباركة الاستفهام الاستنكاري الذي يدين ويبطل منطق المشركين.

فالله سبحانه وتعالى يخاطب رسوله الكريمﷺ أن يقول للمشركين – الذين قادهم جهلهم وحمقهم إلى عبادة غير الله تعالى، أو اتخاذ شركاء معه – أنى لي أن أتخذ ربّا غير الله سبحانه وهو ربّ كل شيء، وخالق وصانع ومدبر كل شيء؟!

إنّ الفطرة والعقل البشري يرفضان منطق المشركين هذا، ويقطعان بأن من يستحق العبادة، ومن لا

ينبغي أن يتخذ غيره ربّا هو الخالق جلّ اسمه، الذي لا إله غيره.

ثـم إن الآيـة الكريمـة هـذه من خلال تعرضهـا لمفهـوم ربوبية الله تبـارك وتعالى تتنـاول ثلاثة من التفريعات المهمّة:

الأول: إنّ ما يفعله الإنسـان من شـتى الأعمال طيلة حياته - حسـنة كانت أم سيئة، خيراً كانت أم شراً - مآبها إليه في آخر المطاف، فيثاب على الخير والحسنات، ويعاقب على فعل الشرّ والسيئات.

ومن هنا فإن هذه الآية تنبه الإنسـان إلى وجوب سلوك جادة الصواب، والطريق الصحيح المؤدي إلى النجـاة، والعمـل الذي لا بـد أن يتصدر أفعاله هو توحيـد الله تبارك وتعـالى، وعبادته وحده دون سواه، فإن ذلك هو مصدر كل خير، ومنجى من كل سوء.

الثاني: إن نتيجة الفعل متعلقة بفاعلها فحسـب دون غيره، فهو الذي يحملها ويتحمل وزرها دون غـيره، فعليه أن يتأمل في نفسـه أين هو من موقع العبـادة الفعلية لله تبارك وتعالى، هل هو في الموحدين أم المشركـين، هـل هو من المتقين أم من العاصين المذنبين؟ فإنّه وحده سـينال جزاء ما اجترحه كما ينال الباقون أيضاً جزاء ما اجترحوا.

الثالث: تشير الآية الكريمة في نهاية المطاف إلى أن نهاية الأمر هو اليوم الذي توفى فيها الأعمال وهو يوم القيامة، يوم يقوم فيها الاشـهاد، وتنشر فيه الصحف، وتعرض فيه الأعمال، وحيث ينبأ الإنسـان حينئذٍ بما عمل من الخير والشرّ، الحسـن والسيء، فعلى الإنسـان أن يجعل ذلك الأمر نصب عينيه، وأن يعد له عدته، ونحن أيضاً مشـمولون بهذا الإنذار كغيرنا من البشر، ولا زال أمامنا متسـع من الوقت إن شاء الله تعالى، فعلينا أن نستثمر هذه الفرصة الثمينة لأنها ستمر علينا مر السحاب، وحينها لا ينفع الندم، ولا تجدي الحسرة.

اللهم لا تحرمنا التوبة إليك، والتوفيق لمرضاتك، والفوز برضوانك إنك نعم المولى ونعم النصير.

٣ - الآيات المشـيرة إلى الحقائق المختلفة الدالة على توحيد الله تعالى كخالق ومدبّر في القرآن الكريم

لّما تعرضنا في مباحثنا السـالفة لجملة الأدلّة المثبتة لوجـود الخالق الواحد المدبّر لهذا الكون، والذي تظهـر وحدانيته من خلال الوحدة المطلقـة للنظم والتدبير الذي يحكم جميع هذه المخلوقات، أشرنا في ضمن ذلك السرد المتعجل إلى جملة متعددة من المشـاهدات الكونية المختلفة، وتعرضنا لبعض دقائقها المثـيرة للذهـول والتعجب، والتي تدلّ على القدرة المطلقة التي لا تحد بحدود للخالق جلّ اسـمه، وما أحكمه جلّ اسـمه من تدبير وتنسـيق يمتد ليشـمل جميع هذه المخلوقات، ضمن قاسـم مشترك دقيق

محبهـم الحلقـات والأبعاد، يدل على وجود مدبر عظيم مقتـدر محيط، واحد أحد فرد، لا شريك له ولا معين.

وسـنحاول هنا أن نستعرض بإيجاز بعض تلك المشـاهدات والحقائق المختلفة التي أشار لها القرآن الكريم في بعض من آياته المباركة الكريمة:

أ- قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربّكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾[٢٥١].

المطالعـة المتأنيـة في هذه الآية الكريمة، ومطالبها المختلفة تظهـر بوضوح إنها - وفي صدد تعرضها لبعض المؤشرات المرتبطة بالخالق جلّ اسمه، والتي تشكل صفات خاصة بالله تبارك وتعالى دون غيره - تتعرض لبعض المطالب المهمة والتي يمكن إجمالها بما يلي:

١ - تتعرّض الآية في بدايتها إلى مسـألة خلق السـموات والأرض، وما فيها من الإعجاز والإتقان والتدبـير المحكم الـذي يظهر عظمة الخالق وقدرتـه التي لا تحدها حدود، والتي سـبق لنا أن تعرضنا لجملـة من مفرداتهـا في بدايات كتابنا، وتناولنا بعض إثاراتها التي توصّـل إليها العلم الحديث في قرننا الحاضر هذا.

فالآية تخاطب البشرية جمعاء بأن من يسـتحق العبادة هو الله الذي أنشـأ وصنع هذا الخلق، وأحكم تدبيره، لا غيره من الأشياء الباطلة والزائلة.

نعـم إن مـن خلق هذا الكون بـأسراره العجيبة، وموجوداته العديدة الدقيقـة الصنع والترتيب هو الذي ينبغي للبشرية جمعاء أن تتخذه ربّا لها، تطيعه وتلتزم بأوامره.

وكلمـة الأيـام هي جمع لليوم، ولعلّ المراد بها المرحلة كما تسـتعمل في موارد كثيرة، وليس هو اليوم الذي يتكون من أربع وعشرين ساعة كما هو معروف.

فأمره سـبحانه إذا أراد شـيئاً أن يقـول له كن فيكون، ولكن لمصلحة ربّانيـة وحكمة إلهية جعل الله تبارك وتعالى خلق السموات والأرض يستغرق هذه الأيام الستة التي تذكرها الآية الكريمة.

٢ - وبعد انتهاء الآية الكريمة هذه من التذكير بخلق السـماوات والأرض تنتقل إلى المرحلة الثانية التي تليها، وهي التدبير والنظام الدقيق الذي يحكم جميع هذه المخلوقات، ويخضعها لنواميسه.

فالآية تثير في الأذهان عظمة هذا التدبير المتقن الذي يحكم الكون وينظم أموره، وتخصه بالله تعالى فحسب، داعية الناس إلى عبادة هذا الربّ العظيم ونبذ عبادة ما غيره من الرموز والموجودات الناقصة والضعيفة والعاجزة عن تدبير أي شيء.

٣ - ومـن ثـمّ فإنّ الآية الكريمـة تحاجج المشركين الذيـن يدّعون بأنّهم يؤمنـون بوجود الله تعالى،

وأنّه هو الخالق لكل شيء، بيد أنّهم يدّعون بأنّهم يتخذون الأصنام واسطة فيما بينهم وبين الله تعالى، وذلك لاعتقادهم بأن الواسطة المفترضة الذي أوجدوها هي التي تشكل باب الشفاعة لهم عند الله تعالى، ولذا فهم عليها عاكفون، حمقاً وجهلاً، في حين أن من يمتلك حق الشفاعة هم أولياء الله وعباده الصالحون، لا هذه الأصنام التي تصنع من التمر والحجارة والمعادن، فهي صمّاء خرساء لا تملك شيئاً، فأنى لها أن تكون شفيعة وواسطة بين البشر والله تعالى!!

نعم إن الآية (تعمد) بعد ذلك إلى توجيه الناس إلى عبادة الله تعالى وحده دون أي شريك، ونبذ عبادة ما سواه بقوله تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾.

ب – وقال جلّ اسمه في سورة الأنبياء: ﴿قل إنّما يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون﴾[٢٥٢].

التأمّل في هذه الآية الكريمة يظهر جملة من الملاحظات المهمة التي يمكن إجمالها بما يلي:

١ – تبتدى الآية بقطع وحصر الوحي الإلهي الذي بلغ به محمّدﷺ – كما بلغ به جميع الأنبياء والمرسلينعليهم السلام دون استثناء – هو أن لا إله إلا إله واحد وهو الله تعالى، فتبطل دعوة المشركين، وأصحاب الأفكار المنحرفة الذين دعوا مع الله إلهاً آخر، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون.

٢ – تقدّمت هذه الآية آية تتعرّض للرحمة الإلهية باعتبار أن محمّداًﷺ ما أرسل إلا رحمة للعالمين ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾[٢٥٣] وأنّ من أوضح ثمار هذه الرحمة الإيمان بالتوحيد الإلهي، وهو الأصل الذي دعا له جميع الأنبياء والمرسلينعليهم السلام، فليس هناك شيء – أعظم منه ولا أكبر.

٣ – الملاحظة الثالثة التي تظهر من خلال مطالعة هذه الآية الكريمة هي الدعوة للتسليم قبالة الحقّ الذي يطهّر الإنسان من أدران الشرك وعبادة الأصنام وغير ذلك من الأعمال الفاسدة المنحرفة التي يقود إليها هذا الانحراف الفكري والعقائدي.

فالتوحيد بأبعاده المختلفة يقود الإنسان نحو عالم السمو والرقي الروحي، والتربية الأخلاقية التي تنعكس بالتالي على مجمل الأفكار والأعمال الخاصة به في تعامله اليومي.

ج – وقال تبارك وتعالى في سورة القصص: ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾[٢٥٤].

المراجعة للآيتين اللتين سبقتا هذه الآية الكريمة، وهو قوله تعالى: ﴿وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عمّا يشركونَ * وربّك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ تظهر جملة من المواضيع المهمة التي تشكل مورداً هاماً في المباحث الفكرية والعقائدية، والتي تتصدرها صفة الخلق الخاصة بالله تبارك وتعالى، والمتفرّد بها جلّ شأنه، ثم تتطرّق إلى مسألتي الاختيار والعلم المطلق

له سبحانه، والتي تتجلّى حين المقايسة بين أعمال الله تعالى وبين حالة المعبودات الزائفة الأخرى – التي يتخذها البعض سفهاً آلهة لهم دون أو مع الله جل شأنه – بأبهى الصور النافية عن استحقاق أحد العبادة من دون الله تبارك وتعالى، لعجز كلّ شيء دونه عن أي شيء، حين لا يعجزه سبحانه شيء، في أي وقت، وفي أي زمان.

إذن فلا مناص من الجزم بأن من يستحق العبادة والحمد هو الله تعالى الذي له الحاكمية على الدين، وله الآخرة كما له الأولى.

ثم إن الآية المتقدّمة تأكد على ثلاث مطالب مهمة هي:

١ – التوحيد في العبادة.

٢ – التوحيد في الحمد.

٣ – التوحيد في الحاكمية.

ومن ثم فإن الآية تشير بعد ذلك إلى توضيح الخاتمة التي لابد للجميع من أن يؤول إليها، وهي الرجوع إلى الله تبارك وتعالى، والوقوف بين يديه للحساب...

إنّ البداية كانت بأمر الله تعالى، والخاتمة بأمره، فلا مفرّ لأحد من التسليم لهذا الأمر، والإقرار بعظمة الله تبارك وتعالى، والتحسب من يوم يقف فيه الجميع للمساءلة عما اجترحته أيديهم، حيث لا معذرة حينئذ ولا تنصل من تبعة أي شيء، بل هناك جزاء ما قدّم الإنسان من أفعاله خيراً كانت أم شراً، فالتأهب لذلك اليوم خير وسيلة للنجاة من أهواله، أعاذنا الله وجميع المؤمنين والمؤمنات منها إنه رؤوف رحيم.

د- وقال جلّ من قائل في سورة يس: ﴿**ءأتخذ من دونه آلهة أن يردن الرّحمن بضرٍ لا تغن عنّي شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إنّي إذا لفي ضلالٍ مبينٍ إني آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين**﴾[٢٥٥].

يسجّل الله سبحانه في هذه الآيات المباركة محاورة مؤمن آل ياسين المدعو بحبيب النجّار مع المشركين الذي وقفوا بوجه الدعوة إلى التوحيد التي جاء بها الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، ومنهم نبض زمانه، حيث سعى أولئك المنحرفون إلى الكيد بهذا النبيّ وقسر الناس على عبادة الأوثان والرموز الساقطة المنحرفة التي يدعون ألوهيتها حمقاً وجهلاً.

فهذا الرجل كان يحاجج المشركين بأن آلهتهم التي يزعمون لا تملك أن تدفع عن أحد الضرّ إن إرادة الله تعالى به، بل ولا تملك القدرة على الشفاعة لهم عد الله والتي من أجلها عبدوها واتخذوها آلهة بحماقتهم.

فإن كان المشركون يدّعون بأنهم ما اتخذوا هذه الأصنام إلا لتكون شفيعة لهم عند الله تعالى، فإن الله سبحانه ينفي ويبطل ادعاءهم هذا من أساسه، فلا شفاعة إلا لمن يأذن الله ويرضاه، وهم بلا شك غير هذه الأصنام والأوثان العاجزة عن فعل أي شيء.

إن محاورة مؤمن آل ياسين مع قومه تسقط دعاواهم، وتبين لهم بأن مصير من يتخذ له آلهة غير الله تعالى هو الفشل والضلال المبين الذي يقود إلى جهنم حيث العذاب الأليم، على خلاف طاعة الله تعالى وتوحيده الصادق الذي يهدي إلى الرشد، وإلى الفوز بجنّات النعيم.

نعم فإن هذا الرجل الذي سقط شهيداً في ساحة الدفاع عن التوحيد الإلهي لم يلبث بعد استشهاده أن حل في جنات النعيم، وغفر الله له نتيجة لذلك ما أسلف من ذنوب برحمة الله تبارك وتعالى.

هـ – وقال تبارك وتعالى في سورة المؤمنون: ﴿**ذلكم الله ربّكم خالق كلّ شيء لا إله إلا هو فأنّى تؤفكون**﴾[٢٥٦].

تشتمل هذه الآية المباركة كما هو واضح على ثلاثة أقسام من أقسام التوحيد التي سبق وأن تعرضنا لبعض أبعادها في مباحثنا السالفة، والتي يمكن إجمالها بما يلي.

١ – توحيد الربوبية.

٢ – توحيد الخلاقية.

٣ – التوحيد العبادي.

والمستقرئ في الأبعاد هذه يجد أنّها تصب في مجرى يؤدي إلى إقرار توحيد الله تبارك وتعالى، ونبذ الانقياد والطاعة والعبودية لما عداه، لأنّ من يمتلك هذه المواصفات هو من يستحق العبادة فعلاً، لا من هو يُخلق وهو ناقص ضعيف.

ومن هنا تجد أن الله تعالى بعد أن يوضح سبل الهداية إليه، ويبيّن مسالكها، تراه يتوعّد المشركين الذين اتبعوا أهواءهم بغير علم ولا هدى بالعقاب الشديد، والنكال العظيم، حيث أنكروا التوحيد الإلهي الواضحة سبله، وولجوا الشرك وتمرغوا بأوحاله ومياهه الآسنة النتنة التي تزكم الأنوف، فأنّى يؤفكون.

و – وقال جلّ اسمه في سورة المؤمنون أيضاً: ﴿**قل إني نهيت أنّ أعبد الذين تدعون من دون الله جاءني البيّنات من ربّي وأمرت أن أسلم لربّ العالمين**﴾[٢٥٧].

الآية الكريمة موجهة من قبل الله تبارك وتعالى إلى رسوله الكريم ﷺ، كخطاب منه إلى المشركين الذين اتخذوا مع الله تعالى آلهة، فهو قطع بانتفاء ألوهية غيره سبحانه بالدليل الحاسم، والبرهان القاطع.

كما أن التأمّل في هذه الآية يظهر أنّها تأكد على ثلاثة مطالب مهمة يمكن أجمالها بما يلي:

١ - التصريح من قبل رسول الله ﷺ بأنّه منهي من قبل الله تعالى عن عبادة الأصنام، وهي حجة دامغة تلقم أفواه المشركين الذين يدعون أنهم ما يعبدون هذه الأصنام إلا لتقربهم إلى الله تعالى زلفاً، أو أنّها ما تعبد إلا كواسطة بينهم وبين الله سبحانه، حيث أنّ هذه الآية تبيّن بأن الخالق الذي يدعون إيمانهم بوجوده هو الذي ينهى عن عبادة هذه الأوثان الباطلة، فأنى للمشركين العكوف على عبادة من ينهى الخالق عن عبادته، وهم يدّعون بأنّهم له عابدون!!

وأمّا من لا يؤمن ففي الآية قطع وأيصاد منافذ بوجوههم عن أن يمنون أنفسهم بأنّ هناك بارقة أمل بأنّ يعبد رسول الله ﷺ ما يعبدون من الباطل، وكذا هو حال المسلمين الذين يستنون بسنّة النبيّ الأكرم ﷺ...

٢ - توضح هذه الآية الكريمة المباركة أن النهي الوارد عن عبادة الأصنام لم يأت من خواء وفراغ، بل هو مبني على أسس وقواعد وبينات واضحة تجزم ببطلان عبادة هذه الأوثان التي أوجدها الفساد والانحراف الفكري المرتكز على الجهل والتخبّط والتخرّص.

٣ - ثمّ إنّ الآية تخلص في نهاية المطاف إلى وجوب عبادة الله الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو سبحانه، الذي خلق كل شيء، ودبّر كل شيء، فهو الربّ الذي يستحق العبادة، لأنه ربّ العالمين.

إذن فإنّ الآية الكريمة تبتدئ بالنهي عن عبادة شيء غير الله تعالى بوضوح وجلاء، ثمّ تقرّر أنّ النهي مستند إلى الأدلة والبينات، وأخيراً تختم المحاورة بتوجيه أنظار الجميع إلى أنّ سبيل النجاة هو التسليم لربّ العالمين تبارك وتعالى.

٤ - آثار التوحيد ونتائج الشرك

يشكّل هذا المبحث القسم الرابع من أقسام الآيات المتناولة لمفهوم التوحيد في القرآن الكريم، والداعية الناس إلى مدينة التوحيد الفاضلة، والارتكاز على مفهوم التوحيد في كل الأفكار والأعمال الفردية والجماعية المختلفة، وسنحاول نحن هنا التعرض لجملة محدّدة من تلك الآيات المباركة بشيء من الشرح المختصر.

أ- قال الله تبارك وتعالى في سورة الروم: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون**﴾[٢٥٨].

قال الشيخ الطوسي رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية:

قال تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ - والمراد به جميع المكلّفين - ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً**﴾ أمرهم الله

تعالى أن يوجهوا عبادتهم إلى الله سبحانه على الاستقامة، دون الإشراك في العبادة.

ثـم قـال: ﴿فطـرة الله التي فطر النـاس عليها﴾ قيل: تقديـره: اتّبع فطرة الله تعالى التـي فطر الناس عليها، لأن الله سـبحانه خلق الخلق للإيمان، ومنه قولهﷺ: كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه.

ومعنـى الفطر الشـق ابتداء، يقولون: أنا فطرت هذا الشيء أي أنـا ابتدأته، والمعنى: خلق الله تعالى الخلق للتوحيد والإسلام.

وقولـه سـبحانه: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ على رأي بعضهم، لا تبديـل لدين الله تعالى الذي أمركم به من توحيده، وعدله، وإخلاص العبادة له. وقيل: المراد نفي الخطأ.

ثـم قال:- ﴿ذلك الدّين القيّم﴾ أي ما بيناه من التوحيد، والعدل، وإخلاص العبادة لله، هو الدين القيـم - أي المسـتقيم - الذي يجب اتباعه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمـون﴾ صحة ذلك لعدولهم عن النظر فيه[٢٥٩].

والخلاصة المستوحاة من هذه الآية والشرح المتقدّم لها يمكن تحديد أبعادها بالملاحظات التالية:

١ - العلم بالله تعالى ومعرفته يشـكّل الأساس المؤدي بالإنسان إلى تثبيت أسس الإيمان التوحيدي وإقامـة أركانه، وهذه المعرفة القائمة على أسـاس التأمّل والتدبـر والتفحص العلمي يعاضدها الإيمان الفطري الذي خلق الإنسان عليه، من الإيمان بوجود الخالق الواحد جلّ اسمه.

وإذا كانت الفطرة السـليمة في أساسـها مجبولة على هذا الإيمان النقي والسليم، فإن التوجيه الديني المحاكي لها خير معضد لثباتها واسـتقرارها، يضاف إلى ذلك ما يترتب عليه الجهد التدبري في القواعد الدالة على أساس التوحيد، والتي سلف وأن تعرضنا إليها في بدايات كتابنا.

٢ - قوله تعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ و﴿ذلك الدّين القيّم﴾ فيه تأكيد بيّن ومتكرر على الإستقامة التي جبلت عليها فطرة الإنسان.

فالانحرافات الفكرية والعقائدية التي تطفح على أذهان بعض الناس أحيانا، لا تشكّل في حقيقتها إلا صـورة مشوشـة وغير واضحـة عن ماهية الفطـرة البشريـة، أو بصورة أوضح كغبـار يغلف تلك الفطـرة لا يلبـث أن يتطايـر عنـد أدنى تأمّل وتدبـر، أو عودة واقعيـة إلى أصل تلك الخلقـة وحقيقتها الناصعة، وقد توسّعنا آنفاً في إيراد جملة متفرقة من الشواهد الخاصة بهذا الموضوع، فراجع.

٣ - ثمّ إنّ الآية الكريمة تشير إلى حقيقة مؤلمة لا يسع أحد غض النظر عنها، وهي أن أغلب الناس في غفلـة عـن إدراك هذه الحقيقة، وعن سـلوك المسـار القويم، ولـذا فهم متخبّطون تائهـون، يعدون خلاف الطريق الواضح، والمسير السليم الذي إختطّته لهم الشرائع السماوية المباركة التي بشر بها جميع

الرسل والأنبياء عليهم التحيّة والسلام، وهو خلاف فطرتهم التي فطرهم الله تعالى عليها.

ب – وقال جلّ اسمه في سورة الرعد: ﴿الّذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[٢٦٠]

الإيـمان الكامل والصحيـح متوج بالتوحيد الخالـص لله تبارك وتعالى، وهـذا التوحيد المتناغم مع الفطرة البشرية، ومع العقل البشري، يلقي بظلال الاطمئنان والاستقرار على النفس البشرية، والذي لا يسـعها أن تجـده عند تخبطها في اتباع أهوائها وشـهواتها، وما تتفتق عليه بعـض التفكيرات المنحرفة للوجودات الساقطة الناقصة.

ومـن هنـا فـإنّ حقيقة مـا نراه من الضيـاع الروحـي والنفسي الـذي تصطبغ به الحضـارات المادية في أنحاء العالم هو خير شـاهد على التنافر الحاد بين الأسـس المبتعدة عن الشرائع السـماوية الداعية إلى التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى، وبين النفس البشرية وفطرتها الحقيقية النقيّة، وغير الملوثة بالأدران والشوائب.

نعم وماهية هذا الأمر تتجسّد بوضوح عند الاستقراء المتأمّل للمظاهر المختلفة التي تطالعنا بشكل دائـب ودوري عـن حـالات المعاناة النفسـية التي لم تعـد دوائر الإلحاد بقـادرة على إخفائهـا والتمويه عليها.

بـلى، ومصـداق هـذا الأمر لا يتحدد بهـذه المظاهر البينة، بـل يتعداه إلى إعـلان رواد هذه المدارس الماديّة عن إفلاسـهم الفكري قبالة التحديات الفكرية والنفسـية التي تطغى على الحياة العامة للبشرية، بل والتصريح المعلن من قبل جموع الرافضين لمبدأ التسليم للأفكار المادية بعجز هذه الأفكار عن توفير فرص الأمن والاستقرار للتخبّط الفكري والنفسي الذي يعاني منه أتباعها والسائرون في فلكها.

ولا غـرو في ذلـك فهذه الحقيقة أجّل من أن تحتاج معها إلى برهان وتأكيد، وإقرار الجميع بأن واحة الأمان هي في اتباع العقائد السـماوية التي تدعو إلى التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى صريحة ومعلنة، وهذا ما تشير إليه الآية المباركة بوضوح.

إشارات وملاحظات

١ - البدعة أقرب الطرق إلى الشرك

المطالعـة في الروايـات المنقولة عن أهل بيت العصمةعليهم السلام تظهر بجلاء أنّ البدعة واتّباعها من أقرب الطرق إلى المؤدية إلى الشرك والانحراف.

روي عـن الإمـام الصـادقعليه السلام وقد سـأله أحـد أصحابه عـن أدنى ما يكـون به الإنسـان مشركاً، فقالعليه السلام: من ابتدع رأياً فأحب عليه، أو أبغض عليه[٢٦١].

فالشريعة الإسـلامية الخالـدة التي نظّمت العلاقات البشرية، بأشـكالها المختلفـة، أخضعت جميع ذلك للبرنامج السماوي الإلهي الذي يهدف إلى تجسيد المفهوم العبادي القويم الأحادي المنشأ، الصادر عن الذات الإلهية المقدّسة، وهذا هو ديدن دعوة جميع الأنبياء والمرسلينعليهم السلام على امتداد التاريخ، وتتابع دورانه.

بيـد أنّ إقـامة مشـاريع مخالفـة ومعـارضة للمشـروع السـماوي المتكـامل، وإخضـاع السـلوك البشـري لأبعـاده الخـاة بـه، وترتيـب جملة جديـدة غـير قويمـة خاضـعة للأهـواء والأمـزجـة المتقلّبـة، واعتبـارهـا كمـدارس أخلاقيـة واقعيـة تحتـوي وتنطـوي تحتهـا جماعـات متفاوتـة البنيـان والتشـكيـل، تخضـع علاقاتهـا بما يحيطها لما تبتدعـه مـن أفـكار وإطروحـات لا أسـاس لها في الشـريعـة السـماوية، فتكـون بالمحصلـة النهائية خـاضعة خضوعـاً مبـاشراً لفـكر يراد به أن يكـون منـاظراً للفكـر والعقيـدة الإلهية، وحيث يترتب على تـأسـيس هـذا الأمـر وجـود إنحـراف كبير يشـكـل في حقيقتـه مدخلاً واسـعاً للتعبد لما هو غير الله تعـالى، كل ذلك خير مصـداق للمفهوم العقـائدي لهذا الحـديث، ولا غـرو في أن يـكون المبتدع أقـرب المراكـز مـوقعاً مـن الشـرك كما هـو معلـوم.

ومـن هنا تجد أن الشريعة الإسـلامية أشـد ما تكون على أصحاب البدع مـن الذين، ضلّوا وأرادوا أن يضلّوا.

قال رسول الله ﷺ: كل بدعة ضلالة[٢٦٢].

وقال ﷺ أيضاً: ألا وكل بدعة ضلالة، ألا وكل ضلالة في النار[٢٦٣].

٢ - التوحيد ميزان قبول الأعمال

تقـدّم منا الحديث بـأن الله تبارك وتعالى عندما خلق بني آدم، وفرض عليهم عبادته، أراد سـبحانه منهـم أن يعبدونـه وحـده مـن دون شرك في أي شـكل مـن الأشـكـال، أو مظهر مــن المظـاهر، لأن لا شـيء - كما هـو ثابت بالدليل والبرهان، وكـما تعرّضنا لذلك مفصّلاً آنفاً - يسـتحق العبادة غيره سـبحانه، وإن من اتخذ له مع الله تعالى إلهاً - مهما كان - ليس إلا ضالاً جاهلاً، لا حجة له ولا برهان إلا اتباع هواه ومجافاة عقله وفطرته.

ولـما كان الله سـبحانه - وهو واجـب الوجود، وإليه مآب العالمين يوم الحسـاب، ليجزي كل نفس بـما عملـت - قد اشـترط على النـاس عبادته وحده، وانه لـن يغفر لمن يعبد معه سـواه من الموجودات المخلوقـة مـن قبله فـإن أي عمل - بالضرورة - لن يقبـل إلا إذا كان المراد به هو وحده سـبحانه دون غيره، وحيث يبطل كل عمل عُمل لغيره - بلا شك - ويحاسب عليه.

قال جلّ اسمه في سورة المائدة: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرّم عليه الجنّة ومأواه النّار وما للظالمين من أنصار لقد كفر الّذين قالوا إن الله ثالث ثلاثةً وما من إلهٍ إلا إلهٌ واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّـن الّذين كفروا منهم عذاب أليم﴾[٢٦٤].

وقال تعالى في سـورة النسـاء: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً﴾[٢٦٥].

وقال سبحانه وتعالى أيضاً في السورة عينها: ﴿ومن يُشرك بالله فقد فترى إثماً عظيماً﴾[٢٦٦].

روى أبـو عمـرو الزبيري أنه سُـإل الإمام الصادق عليه السلام فقال: أيها العـالم، أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله تعالى؟

فقال عليه السلام: ما لا يقبل الله تعالى شيئاً إلا به.

فقال: وما هو؟

فأجـاب الإمام عليه السلام: الإيـمان بالله الذي لا إله إلا هو أعلا الأعمال درجة، وأشرفها منزلة، وأسـناها حظاً[٢٦٧].

وفي العلـل المرويـة عن الإمام الرضاعليه السلام: فإن قال قائل: فلـم وجب عليهم الإقرار والمعرفة بأن الله تعـالى واحـد؟ قيل لعلل، منهـا: إنّه لو لم يجب عليهم الإقرار والمعرفة لجاز أن يتوهموا مدبّرين أو أكثر من ذلك، وإذا جاز ذلك لم يهتدوا إلى الصانع لهم من غيره، لأن كل إنسان منهم كان لا يدري لعله إنّما يعبد غير الذي خلقه، ويطيع غير الذي أمره، فلا يكونون على حقيقة من صانعهم وخالقهم، ولا يثبت عندهم أمر آمر، ولا نهي ناه، إذ لا يُعرف الأمر بعينه، ولا الناهي من غيره.

ومنها: إنّه لو جاز أن يكون اثنين لم يكن أحد الشريكين أولى بأن يعبد ويطاع من الآخر، وفي إجازة أن يطـاع ذلـك الشريك إجازة أن لا يطـاع الله تعالى، وفي أن لا يطاع الله عزّ وجلّ الكفر بالله، وبجميع كتبه ورسله، وإثبات كل باطل، وترك كل حق، وتحليل كل حرام، وتحريم كل حلال، والدخول في كل معصية، والخروج من كل طاعة، وإباحة كل فساد، وإبطال كل حق.

ومنهـا: إنّه لـو جاز أن يكون أكثر من واحد لجاز لإبليس أن يدّعـي أنه ذلك الآخر حتى يضاد الله تعالى في جميع حكمه، ويصرف العباد إلى نفسه، فيكون في ذلك أعظم الكفر، وأشد النفاق[٢٦٨].

بـل وإن المطالعـة في جملة واسـعة مـن الروايات والأخبـار المنقولة عن أهل بيـت العصمةعليهم السلام تبين بوضـوح أن التوحيـد كـما هـو لا يقبل الله تعالى من دونه شـيئاً، فإنـه أيضاً المعراج العظيـم نحو الرضا الإلهي، والسبيل القويم نحو مرفأ الأمان ﴿**يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه**﴾[٢٦٩].

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: التوحيد ثمن الجنّة[٢٧٠].

وروي عنـه صلى الله عليه وآله أيضاً: في قول الله عزّ وجلّ: ﴿**هل جزاء الإحسـان إلا الإحسـان**﴾[٢٧١]: إن الله عزّ وجلّ قال: ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنّة[٢٧٢].

وروي عـن ابن عبـاس عنه صلى الله عليه وآله أيضاً: والذي بعثني بالحقّ بشـيراً لا يعذّب الله تعـالى بالنار موّحداً أبداً، لأن أهل التوحيد ليشفعون فيشفعون[٢٧٣].

وقال أيضاً صلى الله عليه وآله: من مات ولا يشرك بالله تعالى شيئاً أحسن أو أساء دخل الجنّة[٢٧٤].

بل وروي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: الموجبتان: من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنّة، ومن مات يشرك بالله شـيئاً يدخل النار[٢٧٥]. وقوله صلى الله عليه وآله: إنّ لا إله إلا الله كلمة عظيمة كريمة على الله عزّ وجلّ، من قالها مخلصاً استوجب الجنّة[٢٧٦].

وروي عن الإمام الصادقعليه السلام قوله: إنّ الله تبارك وتعالى حرّم أجساد الموحدين على النار[٢٧٧].

وروي عـن معـاذ بن جبل أنّه قال: كنـت ردف النبيّ صلى الله عليه وآله فقال لي: يا معاذ، هل تدري ما حق الله عزّ وجلّ على العباد؟ يقولها ثلاثاً.

فقلت: الله ورسوله أعلم.

فقال ﷺ: حق الله عزّ وجلّ على العباد أن لا يشركوا به شيئاً.

ثم قال ﷺ: هل تدري ما حقّ العباد على الله عزّ وجلّ إذا فعلوا ذلك؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

فقال ﷺ: أن لا يعذبهم. أو قال: أن لا يدخلهم النار[٢٧٨].

٣ - التوحيد والفطرة البشرية

كنّا قد تعرضنا عند حديثنا حول ما يشكله العلم بالله تعالى من مدخل واسع وكبير في التوصّل إلى التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى إلى دور الفطرة البشرية في عملية الاسترشاد الميسّر للإقرار بوجود ووحدانية الله تعالى، وأشرنا إلى بعض أبعاد هذا الأمر المهم والحساس.

نعم إن التوحيد هو ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾[٢٧٩] بيد أنّ أغشية الجهل وطوفان الهوى هو ما يلقي بستائر الشرك والانحراف على النفس البشرية، فتنتكص خائبة في زوايا السقوط المعتمة، تاركة خلفها بحمق لا يُغتفر باحات النور والهداية المفعمة بالخير والعطاء.

إن الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها هي الإقرار بوحدانيته سبحانه، ونفي الأضداد والشركاء عنه.

سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ فقال عليه السلام: التوحيد[٢٨٠].

وقال عليه السلام في موضع آخر: فطرهم جميعاً على التوحيد[٢٨١]. وسأل زرارة الإمام الباقر عليه السلام فقال: أصلحك الله، قول الله عزّ وجلّ: ﴿فطرة الله التي فطر النّاس عليها﴾.

فقال عليه السلام: فطرهم على التوحيد عند الميثاق على معرفته أنّه ربهم[٢٨٢].

وسئل عليه السلام عن الحنيفية في قول الله عزّ وجلّ: ﴿حنفاء لله غير مشركين به﴾[٢٨٣].

فقال عليه السلام: هي الفطرة التي فطر الناس عليها، فطر الخلق على معرفته[٢٨٤].

نعم، وهذه الفطرة التي خلقها الله تعالى تقرّ له سبحانه بالألوهية والوحدانية لو تركت دون أن تلوث بالأدران والخبائث، ومنها المؤثرات البيئية السيئة التي تحيط بهذا الإنسان منذ نشأته وحتى وفاته.

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه[٢٨٥].

وأنت تدرك ما أصاب هاتين الديانتين من إنحراف عقائدي عظيم أساسه التحريف المقصود فيهما

من قبل سـدنتيهما ورجاليهما، من أحبار ورهبان وساسـة بشـكل فاحش لا يخفى على أي أحد، بحيث يبدو الشرك في مفاهيمها سمة بارزة واضحة للعيان، حتى إنك ترى بوضوح جلي إقترانه - بهما في كل موضوع وحديث.

فالإنسـان كـما أسـلفنا فطر على التوحيـد، وهذا ما يشـير إليه كلام سـيدنا المرتضى رحمـه الله تعالى في تأويـل هذا الخـبر، حيث يورد أمرين، يقـول في ثانيهما: إن تأويل قولهﷺ (الفطـرة) يراد به الخلقة، وتكون لفظة (على) على ظاهرها لم يرد بها غيره، ويكون المعنى: كل مولود يولد على الخلقة الدالة على وحدانية الله تعالى، وعبادته، والإيمان به، لأنّه جلّ وعزّ قد صوّر الخلق وخلقهم على وجه يقتضي النظر فيه معرفته والإيمان به، وإن لم ينظروا ويعرفوا.

وأضـاف رحمه الله تعالى: وقولهﷺ (حتى يكون أبواه يهودانـه وينصرانه) يحتمل وجهين: أحدهما: إن مـن كان يهوديـاً أو نصرانيـاً ممن خلقته لعبادتي وديني فإنما جعله أبـواه كذلك، أو من جرى مجراهما ممن أوقع له الشبهة، وقلّده الضلال عن الدين، وإنّما خصّ الأبوين لأن الأولاد في الأكثر ينشأون على مذاهب آبائهم، ويألفون أديانهم ونحلهم...[٢٨٦].

٤ - الشرك الخفي

لعلّ من أخطر الأمور الإشراكية التي كثيراً ما يقع فيها المؤمنون بشـكل لا يقصد منه الشرك - بيد أنّـه مظهـر جـلي من مظاهره الخبيثة - هـو الشرك الخفي، ويراد به إشراك غـير الله تعالى في ما يختص به سبحانه ويتفرد به، وبصورة خفيّة وغير علنية كما كان عليه المشركون في العصور السالفة، وفي عصرنا الحاضر.

وحقيقة هذا الشرك الذي يقع في مصيدته المؤمنون بأشـكال مختلفة يشـير إليها قوله تعالى في سـورة يوسف، حيث يقول جلّ اسمه: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾[٢٨٧].

يقول الإمام الصادقعليه السلام في تفسـيره لهذه الآية المباركـة: هو قول الرجل: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لأصبت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي، ألا ترى أنّه قد جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه[٢٨٨]؟

وروي عـن أبي جعفـر الباقرعليه السلام في هذا المضمون: شرك طاعة قـول الرجل: لا والله وفلان، ولولا الله وفلان، والمعصية منه[٢٨٩].

بـل وروي عـن أمـير المؤمنينعليه السلام قوله: وأمـا الوجه الثاني مـن الشرك فهو شرك الأعـمال، قال الله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ وقوله سبحانه: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً

من دون الله﴾[٢٩٠] ألا أنّهم لم يصوموا لهم ولم يصلوا، ولكنهم أمروهم ونهوهم فأطاعوهم، وقد حرموا عليه حلالاً وأحلّوا لهم حراماً فعبدوهم من حيث لا يعلمون، فهذا شرك الأعمال والطاعات[٢٩١].

أقول: عند حديثنا عن أقسام التوحيد تعرضنا إلى مفهوم التوحيد الأفعالي، وذكرنا بأن هذا القسم من الأقسام الهامة التي يجب أن لا تغرب عن مخيلة الموحدين لما له من تأكيد قطعي لمفهوم التوحيد، وذكرنا أيضاً بأن المراد به هو الاعتقاد بأن كل هذا العالم، بدقائقه وتفصيلاته، من فعل الله الواحد الأحد، بل وكل الأعمال، والتأثيرات، والحركات وغيرها خاضعة للإشراف الإلهي، فلا مؤثر في الوجود إلا هو جلّ شأنه.

نعم فإن التوحيد الأفعالي في نظر الشيعة الإمامية ينطلق أساساً من اعتبار كون المؤثر الحقيقي في العالم هو الله سبحانه، وكل سبب له تأثير وهذا التأثير من أمره جلّ شأنه، فهو الذي أعطى النار قابلية الإحراق، والشمس النور، والماء القوة الحياتية.

ثمّ إنّا ذكرنا بعد ذلك بأن مظاهر هذا النوع من أنواع التوحيد تتجلى بوضوح في الأقسام التالية:

١ - التوحيد قي الخلق.

٢ - التوحيد في الربوبية.

٣ - التوحيد في المالكية والحاكمية التكوينية.

٤ - التوحيد في المالكية التشريعية.

٥ - التوحيد في الطاعة.

ومن هنا فإن إشراك أي شيء مع الله تعالى في أي فعل من هذه الأفعال يشكّل شركاً واضحاً وإن عمل البعض على تجاوزه، وحيث يكون بالتالي شركاً خفياً لا ينبغي تجاهله والوقوع فيه، لأنه يُخرج المؤمن من حظيرة الموحدين إلى خانة المشركين.

٥ - الشرك الأصغر

قال رسول الله ﷺ مخاطباً أصحابه. إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر.

فقالوا له: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟

قال ﷺ: هو الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء[٢٩٢].

لا يخفى على مطلع أن كما للتوحيد أقسامه المختلفة - التي تعرضنا لها آنفا في مباحثنا السالفة - فإن للشرك أقسامه أيضا، والتي منها الرياء، والذي يشكّل في أبعاده المختلفة من أخطر أنواع الشرك التي

يبتـلى بهـا بعض الناس في أدائهم لجملة من أعمالهم وعباداتهم المتعـددة، حيث تجدهم يقعون في حبائله وشباكه بأشكال مختلفة.

بلى، إن ما يؤديه الإنسـان من أفعال عبادية ينبغي أن يريد بها وجه الله تبارك وتعالى، لا شيء غيره، فـإن أشرك في هـذه النيـة أمراً آخراً، كان يبتغي اسـترعاء انتبـاه أو رضا غير الله تعـالى، فقد أشرك معه سبحانه، وإن كان هدفه الأساس هو كسب رضاه جلّ اسمه.

ولعـل هـذا الأمر من المواضع الحساسـة والخطرة. التي كثـيراً ما يبتلى بها النـاس عند شروعهم في بعض الأعمال وفي مناسبات مختلفة، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعضها إجمالا وإلى عواقبها:

فقـد قـال الله سـبحانه في سـورة البقـرة: ﴿**كالّـذي ينفـق ماله رئـاء النّـاس ولا يؤمن بـالله واليوم الآخر**﴾[٢٩٣].

وقوله سـبحانه في سـورة الأنفـال: ﴿**ولا تكونـوا كالّذين خرجوا مـن ديارهم بطـرا ورئاء الناس ويصدّون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط**﴾[٢٩٤].

وقوله تبارك وتعالى في سورة الماعون: ﴿**الّذين هم يراؤن ويمنعون الماعون**﴾[٢٩٥].

بـل روي عن أهل بيت العصمة عليهم السلام الكثير من الروايات المحذرة من هذا النوع الخطير من الشرك، وفي مناسبات شتى.

فقـد روي عن أبي عبـد الله عليه السلام أنه قال لعبّاد بن كثير البصري: ويلك يا عباد، إياك والرياء، فإنّه من عمل لغير الله تعالى، وكّله الله سبحانه إلى من عمل له[٢٩٦].

وروي عنـه عليه السلام قوله: كل رياء شرك، إنّـه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله[٢٩٧].

بـل وروي عنـه عليه السلام أيضاً: قال الله عزّ وجلّ: أنا خير شريك، من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلا ما كان لي خالصاً[٢٩٨].

وفي تفسـير قولـه تعـالى: ﴿**فمـن كان يرجو لقـاء ربّه فليعمـل عملاً صالحـاً ولا يشرك بعبـادة ربّه أحداً**﴾[٢٩٩] قال عليه السلام: هذا الشرك شرك رياء[٣٠٠].

وكذا قوله عليه السلام عن هذه الآية: إنه ليس من رجل يعمل شيئاً من البر ولا يخطب به وجه الله تعالى، إنما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمع به الناس، فذاك أشرك بعبادة ربه أحدا[٣٠١].

٦ - التوحيد الخالص

أسمى درجات التوحيد هو التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى، دون شرك لأي شيء معه في أي شيء، ويكون هذا التوحيد بأشكاله وأقسامه المختلفة، دون أي نقص أو خلل فيها.

روي عن الإمام الصادقعليه السلام قوله: من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنّة، وإخلاصه أن يحجزه لا إله إلا الله عما حرّم الله[٣٠٢].

فالتوحيد اللساني ينبغي أن يكون مظهراً من مظاهر التوحيد الأساسية التي تتجسّد مثلاً بأن يحجزه عن ارتكاب محارم الله تعالى التي نهى عنها، وحذّر من ارتكابها، وتوعد مرتكبيها بالعقاب، وما عدا ذلك فلا يمكن عدّه توحيداً خالصاً قطعاً.

فمن وحّد الله تعالى التزم بأوامره، وانتهى عن نواهيه، وإلا فلا معنى لذلك التوحيد، لأنّه لقلقة لسان ليس إلا.

قال الله تعالى في سورة الزمر: ﴿**قل إنّي أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدّين**﴾[٣٠٣].

وقال جلّ اسمه في نفس السورة: ﴿**قل الله أعبد مخلصاً له ديني**﴾[٣٠٤].

وقال تبارك وتعالى في سورة البيّنة: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدّين حنفاء**﴾[٣٠٥].

٧ - الإستقامة في طريق التوحيد

المواصلة على طريق التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى تتطلب من المؤمن جهداً حريصاً، وتنبهاً دقيقاً، وصبراً مضاعفاً، أن خلاصة هذا التوحيد نهاية المطاف نحو الرضا الإلهي، والفرز بنعيمه الذي لا يقاس به نعيم أبداً.

بل وإن في التوحيد الخالص لله تعالى خير إعداد وتربية للنفس البشرية نحو السمو الروحي، والإنسلاخ من ربقة الركون إلى الشهوات المادية البهيمية، وموافقة للفطرة والعقل موافقة تامة.

بلى وإن الخروج عن هذا المسار القويم يعني المجافاة القطعيّة للمنطق والصواب، والسقوط في الحضيض وهاوية الإنحراف، ولذا يجب بذل الجهد لتلافي ذلك ما أمكن.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إياك أن تشرك بالله تعالى طرفة عين، وإن نُشرت بالمنشار، أو قُطّعت، أو صُلبت، أو أحرقت بالنار، يقول الله تعالى: ﴿**والذين آمنوا بالله ورسله أولئك همّ الصّديقون والشهداء عند ربّهم**﴾[٣٠٦][٣٠٧].

٨ - مراقبة الجوارح في التوحيد

ينبغي للمؤمن المبتغي عدم تجاوز حياض التوحيد العبادي الخالص لله تبارك وتعالى أن يكون حريصاً جداً ومراقباً مراقبة دقيقة لجميع سلوكياته وتصرفاته المختلفة خشية أن تقوده بعض الاشتباهات والالتباسات بعيداً في أوحال الشرك الخفيّة التي تسري كالنمل الأسود في الليالي الظلماء.

ولعلّ من ذلك إخضاع ما يسمعه وما يقوله المرء للمقياس الإسلامي التوحيدي بشكل مباشر ودقيق، وتجنب مواطن اللغو واللهو الباطل التي تؤدي بالإنسان إلى الإنغماس في هذه البرك الآسنة.

قال الإمام الصادقعليه السلام: من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله تعالى فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس[٣٠٨].

نعم بل ينبغي به أن يتبع قول الله تبارك وتعالى وأمره بالإعراض عن ذلك، حيث يقول جلّ اسمه: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالُنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[٣٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾[٣١٠].

وقوله جلّ اسمه: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾[٣١١].

توقّف لا بد منه

عندما تحدّثنا عن أقسام التوحيد، وأشكاله، وأبعاده المختلفة فإنا استعرضنا إجمالاً بعض المفردات والدلائل الخاصة بالتوحيد الإلهي، مستعينين بجملة من البراهين العلميّة الموجبة لإدراك حقيقة التوحيد كما هو واضح بين لا لبس فيه.

بلى، فليس الإيمان بالتوحيد من الأمور التقليدية التي يتبع بها الخلف السلف، أو المقتدين لمقلدينهم، بل هو من الإعتقادات التي تستلزم إيماناً قائماً على الدراسة والتأمّل والتفحص والإستعانة بالأدلة والبراهين العميقة الثابتة، والتي لا تقوم أمامها أي حجة معارضة أو مغالطة باطلة.

نعم إن الله تبارك وتعالى يحاجج المشركين ويطالبهم بالبرهان: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[٣١٢].

بل وأنّه تعالى يتوعد أولئك الذين اتخذوا معه سبحانه آلهة أخرى - زوراً وظلماً، ودون برهان أو دليل - بالعذاب والنكير.

﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنّما حسابه عند ربّه إنّه لا يفلح الكافرون﴾[٣١٣].

إذن فالتوصل إلى حقيقة الإيمان تتطلّب تفكراً وتعقلاً وتدبراً يعتمد القواعد العلمية والمنطقية التي تقود بالتالي إلى التوصل نحو الغاية المطلوبة والمرجوة.

والتأمل في كتاب الله العزيز يظهر بوضوح جلي التأكيد من قبل الله تبارك وتعالى على اعتماد هذه المنابع المهمة، وبمسارب وأشكال متعددة كلها تصب في قضية التفكر والتعقّل التي لا يخفى على أحد ما تشكله من أهمية بالغة، وقيمة عالية.

ولعل من تلك المنابع المهمة المرتبطة بالتفكر، والتي وردت في طي بعض آيات القرآن الكريم هي: العقل، اللّب، الفؤاد، القلب، النهى، النفس، الفكر، الذكر، الشعور، الفقه، البصيرة، الدراية.

ومن جملة الآيات المباركة التي تضمّنت الإشارة إلى تلك المنابع التفكرية والتعقلية يمكننا ملاحظة ذلك التأكيد الربّاني المرتكز على هذا المبنى المهم:

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿**كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تعقلون**﴾[٣١٤].

وقوله جلّ اسمه في سورة الأنعام: ﴿**قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون**﴾[٣١٥].

وقوله سبحانه في سورة الأنعام: ﴿**أنظر كيف نصرف الآيات لعلّهم يفقهون**﴾[٣١٦].

وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين**﴾[٣١٧].

وقوله جلّ شأنه في سورة النحل: ﴿**أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون**﴾[٣١٨].

وقوله عزّ من قائل في سورة النمل: ﴿**ءأله مع الله قليلاً ما تذكّرون**﴾[٣١٩].

وغير ذلك من الآيات القرآنية المباركة التي يدعو فيها الباري جلّ شأنه عباده إلى التفقّه والتدبر والتفحص، واعتماد البراهين والدلائل الواضحة في فهم الأمور الاعتقادية، وبالأخص منها ما يتعلّق بموضوع إثبات الصانع وتوحيده.

والمستقرئ في التراث العقائدي الإسلامي يجد بجلاء ظاهر للعيان أسلوب الفلاسفة والمتكلمين والعلماء والباحثين في التوصل إلى حقيقة وجود ووحدانية واجب الوجود، وكيف أن هذا الأسلوب يعتمد بشكل أساسي على توظيف العقل والإدراك البشري في هذه العملية المهمة والحساسة.

ولقد تعرضنا في صفحات كتابنا الأولى إلى جملة متفرقة من تلك البراهين والدلائل المهمة، وبشكل ضمني في بعضها، وسنحاول هنا على عجالة استعراض بعض المفردات الخاصة بهذا الموضوع.

براهين ودلائل التوحيد

عنـد مطالعة بعض مقـولات الفلاسـفة والمتكلّمين الإشراقيـين[٣٢٠] والمشـائيين[٣٢١] حول إثبات وحدانيـة الخالـق جـلّ اسـمه نجد أنهـا تتحدد ببرهانـين أو ثلاثـة براهين فحسـب، بيـد أن المحققين الإسلاميين باعتماد الأفق القرآني العظيم، وآياته المباركة الكريمة، وكذا باستقراء الروايات الصحيحة المنقولة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، وجدوا آفاقاً واسعة عظيمة، وأبعاداً كبيرة في ميدان معطاء خصب يغترف منه الإنسان ما أراد وما استطاع من الدرر والجواهر النفيسة الغالية، فأضافوا إلى تلك البراهين المحدودة جملة أخرى من الدلائل الدقيقة والواسعة، والتي يمكن إجمالها بما يلي:

١ - برهان وحدة التنسيق الكوني.

٢ - برهان التمانع.

٣ - برهان الفرجة.

٤ - برهان وحدة حقيقة الوجود.

٥ - برهان صرف الوجود.

٦ - برهان الفيض والهداية.

وسـنحاول على عجالة اسـتعراض وتوضيح كل واحـد من هذه البراهين باعتـماد الآيات القرآنية المباركة والروايات الشريفة الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام.

١ - الوحدة في التنسيق الكوني

المطالعـة والتأمّـل في جميع مفردات الكـون الكبيرة والدقيقـة منها يظهر وحدة واحـدة، في التدبير والتنسـيق، وأنهـا خاضعـة لنظـام سـماوي موحـد ينسـق نظمهـا، وحركتهـا، وعلاقتهـا بغيرهـا من الموجـودات المخلوقـات الأخرى، وبشـكل يقطع بوجود خالـق ومدبر واحد لها، وهذا ما سـلف لنا أن اسـتفضنا في شرحـه والإسـتدلال من خلالـه على وحـدة الخالق جلّ اسـمه في طيـات كتابنا آنفا، فـلا جدوى من الإعادة والتكرار، إلا إنا سـنحاول أن نسـتعرض بعضاً من الآيـات القرآنية المباركة،

والروايات الشريفة اعضاداً للبحث، وتبركاً بها.

قال الله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿ما اتّخذ الله من ولدٍ وما كان معه إلـه إذاً لذهب كلّ إلهٍ بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾[٣٢٢].

وقال جلّ اسمه في سورة الملك: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فأرجع البصر هل ترى من فطورٍ ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[٣٢٣].

وقال الإمام الصادقعليه السلام: فلما رأينا الخلق منتظماً، والفلك جارياً، والتدبير واحداً، والليل والنهار والشمس والقمر، دلّ صحة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أن المدبر واحد[٣٢٤]

٢ - برهان التمانع

عندما نتأمّل في الكون الذي يحيط بها فإنّا نجد بوضوح جلي التنسيق والإنسجام بين جميع موجوداته، بحيث لا يمكن أن نجد أي خروج عن القدرة التي تدبّر وتشرف على قيام هذا النظم واستمراره، وأنها جميعها تخضع خضوعاً مباشراً للقدرة الكاملة المحيطة بها.

ثم إن هذا التنسيق الواحد، المتطابق الأبعاد يدلّ بلا شك على وحدة صانعه وخالقه ومدبره، إذ لو كان هناك أكثر من صانع له لبان الإختلاف والتفاوت فيما بين نظم هذه الموجودات وعلاقة كل واحدة بالأخرى.

وافتراض التعدّد الربوبي مع وحدة التنظيم تعرضنا لإثبات بطلانه آنفاً في مباحثنا السالفة، وبشكل مفصل يراجعه من ابتغى الاستزادة.

ثم إن برهان التمانع الذي يمكن إيضاح أهم أبعاده من خلال القطع بوجود القوة المدبرة المشرفة على كل شيء، والمدبرة لكل شيء، تدبيراً متقناً يدفع ما يضاده ويخالفه، قد أفرد العلماء والباحثون جملة تفصيلية من التوضيحات المتعلّقة به، والتي منها ما أورده العلامة المجلسي نقلاً عن المحقق الدواني كنموذج لتقرير آخر لبرهان التمانع، حيث ذكر عنه: إنه لو افترضنا أن هناك أكثر من إله واحد فإن هذا يفترض جملة من التصورات النافية لهذا الإفتراض، إذ إن ذلك لا يخلو أن تكون قدرة كل واحد منهما وإرادته كافية في وجود العالم، أو لا شيء منهما كاف، أو أحدهما كاف فقط.

وعلى الأول يلزم اجتماع المؤثرين التامّين على معول واحد.

وعلى الثاني يلزم عجزهما لأنهما لا يمكن لهما التأثير إلا- باشتراك الآخر.

وعلى الثالث لا يكون الآخر خالقاً، فلا يكون إلهاً ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾[٣٢٥].

وأما العلامة السيوري المتوفي عام ٧٢٦ هـ فقد ذكر في شرح كتاب الباب الحادي عشر عند تعرضه

لنفي الشريك عنه تعالى جملة وجوه، قال في الوجه الثاني منها: وهو دليل المتكلمين، ويسمّى دليل التمانع، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَو كانَ فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[٣٢٦].

وتقريره: إنه لو كان معه شريك لزم فساد نظام الوجود، وهو باطل.

بيان ذلك: إنه لو تعلّقت إرادة أحدهما بإيجاد جسم متحرّك، فلا يخلو إمّا أن يقع مرادهما، فيلزم اجتماع المتنافيين: أو لا يقع مرادهما، فيلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون. أو يقع مراد أحدهما ففيه فسادان: أحدهما الترجيح بلا مرجح، وثانيهما عجز الآخر، فإن لم يكن للآخر إرادة سكونه فيلزم عجزه، إذ لا مانع إلا تعلّق إرادة ذلك الغير لكن عجز الإله، والترجيح بلا مرجّح محال، فيلزم فساد النظام، وهو محال أيضاً[٣٢٧].

ثمّ إن برهان التمانع هذا ورد واضحاً في تعبيرات القرآن الكريم والروايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام بأشكال وتعبيرات مختلفة ، سنحاول أن نستعرض بعضاً منها:

قال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عمّا يصفون﴾[٣٢٨].

وقال جلّ اسمه في سورة المؤمنين: ﴿ما اتّخذ الله من ولد وما كان معه من إلهٍ إذاً لذهب كلّ إلهٍ بما خلق ولعلا بعضهم على بعضٍ سبحان الله عمّا يصفون﴾[٣٢٩].

وسأل هشام بن الحكم أبا عبد الله الصادق عليه السلام: ما الدليل على أن الله تعالى واحد؟

فقال عليه السلام: اتصال التدبير، وتمام الصنع، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[٣٣٠].

وقد تقدّمت منا الإشارة إلى معاني ذلك وأبعاده فراجع.

٣ - برهان الفرجة

واحد من البراهين الخاصة بالتوحيد الإلهي، وهو عند أرباب المعقول والمنقول ينقل في صورتين إثنتين:

أ – التقرير الفلسفي: ويراد به أن تعدد الآلهة يستلزم تعدّد واجب الوجود، وحيث يتشارك كل منهما في المفهوم، وهذا خلاف ما اتفق عليه العقلاء وأثبته الدليل، فلو افترض أنهما اثنان مثلا فلا بد من أن يتميزا أولاً، والثاني يستلزم المطلوب، وهو انتفاء الشركة، والأول يستلزم التركيب، وهو باطل، وإلا لكان كل منهما ممكناً، وقد ثبت أنه واجب، فيبطل الإفتراض .

ب – التقرير النقلي: في رواية منقولة عن الإمام الصادق عليه السلام يحاجج بها أحد الزنادقة، تسترسل

هـذه الروايـة حتى تتعـرض إلى برهان الفرجة، وحيـث يقول له الإمامعليه السلام: ثـم إن أدعيت اثنين فرجة مـا بينهما حتى يكونا اثنين، فصـارت الفرجة ثالثاً بينهما قديماً معهما، فيلزمـك ثلاثة، فإن أدعيت ثلاثة لزمـك مـا قلت في الاثنين حتى تكون بينهم فرجة فيكونوا خمسـة ثم يتناهـى العدد إلى ما لا نهاية له في الكثرة[٣٣١].

فلـو افترض وجـود إلهين قديمين فإن ذلك يترتـب عليه أما القول بافتقادهمـا في جميع الجهات، أو وجودهما فيها، أو القول باتفاقهما في جهة واختلافهما في جهة، وجميعها واضح البطلان.

فأمّا القول باتفاقهما في كل الجهات فلا خلاف في بطلانها، وقد أشرنا إلى ذلك آنفا، حيث إن ينتفي الامتيـاز لأحدهمـا على الآخـر، ويبطل لعدم جدوى وجـود الاثنين مع الاتفاق الشـامل، وهو فرض محال.

ثـمّ إن القـول باختلافهـما في جميع الجهات هو أوضح بطلاناً لأنّا لم نجـد أي اختلاف أو تفاوت في النظم والتدبير اللذين يحكمان الكون وموجوداته، بل ولم نجد تكرر للخلق مناظر للخلق الأوّل يثبت وجود الإله الثاني، وهذا أيضاً كنا قد تعرضنا لإثبات بطلانه سابقاً فراجع.

وأما القول باتفاقهما في جهة واختلافهما في جهة أخرى، فإن ذلك يوجب افتراض أمر وجودي بين الاثنـين، وهذا الأمر يجب أن يكـون قديماً ومرافقاً لهذين الإلهين المفترضـين، وذلك الإفتراض يترتب عليه القول بإله ثالث مع هذين الإلهين، قديم كقدمهما، فيصبح عندنا ثلاثة آلهة بدل الاثنين.

ولا يتوّقف الأمر عند هذا الافتراض، بل يتعدّاه - واسترسالاً مع فرض هذه النظرية - إلى وجوب وجـود أمـر وجودي آخر بين هذه الآلهة، وينبغي - كما أسـلفنا - أن يكون قديماً كقدمها، فيترتب على ذلـك القـول بإله رابع... وهكـذا حتى يصبح عندنا مالاً عـدّ له ولا حصر من الآلهـة اعتماداً على هذا الإفتراض.

٤ - برهان وحدة حقيقة الوجود

في الفلسـفة المتعاليـة، وباعتـماد البرهـان والدليل الثابـت القطعي يظهـر بوضوح جـليّ أن حقيقة الوجود الذاتية غير مقيدة ومحدودة، حين ترى أن جميع الموجودات الأخرى - دون اسـتثناء - خاصة ومحـدودة ومقيـدة قهراً حين ترى أن حقيقة وجود الله تبارك وتعالى غير محدودة، يقابلها افتراض تعدد الآلهة الذي يصنّف ضمن المحدودات الساقطة الإفتراض.

بـلى إن واجـب الوجود، أي ذات الله تعـالى الطاهرة غير متناهية، وحقيقتهـا لا تخضع لأي حد أو قيد، بل هي محيطة بكل شيء، وقاهرة لكل شيء.

ثمّ إنّ هذا الوجود المقدس أيضاً ليس له هناك أي ضدّ أو مثل أو شبيه، بل إن ذاته المقدسة متجلية في جميع الجهات، وغير متناهية، وقد استعرضنا هذا المبحث بالتفصيل آنفاً.

ثم إن أستاذنا العلامة الطباطبائي رحمه الله تعالى برحمته الواسعة قد تناول في بحوثه القيمة هذا الموضوع بدقائقه وتفصيلاته، باعتماد النصوص القرآنية، والسنة الطاهرة، فليراجع من ابتغى الاستزادة والإحاطة كتابه في نهاية الحكمة.

نعم، وسنحاول هنا أن نستعرض بعضاً من الآيات والروايات المتعرضة لمفهوم برهان وحدة حقيقة وجود الوجود.

قال الله تبارك وتعالى في سورة البروج: ﴿**والله من ورائهم محيط**﴾[٣٣٢].

فالآية الكريمة هذه تذكر إحاطة الله تبارك وتعالى بجميع الموجودات، وهذه الإحاطة أيضاً هي إحاطة ظاهرية وباطنية، بل وتعني خضوعها جميعاً للذات الإلهية، التي لا تخضع لحدّ أو مدى.

وهذه الإحاطة المطلقة من قبل الله تبارك وتعالى تنفي وجود أي قدرة أخرى تمتلك هذه الميزة، فيبطل افتراض تعدد الآلهة قطعاً.

وقال جلّ اسمه في سورة الحديد: ﴿**هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيءٍ عليمٌ**﴾[٣٣٣].

التأمّل في هذه الآية الكريمة يظهر أنها تعرضت إلى خمس صفات من صفات الله تبارك وتعالى، وهي:

١ - أنه تعالى الأول حيث لا أول قبله، وهو أزلي قديم.

٢ - أنه تعالى الآخر فلا آخر بعده، فهو أبدي لا أبدي غيره.

٣ - أنّه تعالى ظاهر غير مخفي.

٤ -أنّه تعالى باطن فلا يظهر لأي أحد.

٥ -أنّه تعالى عالم بكل شيء وقادر على كل شيء.

وروي عن رسول الله ﷺ قوله في أحد أدعيته: اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء[٣٣٤].

وروى أبو بصير أن أبا عبد الله عليه السلام أخرج حقاً (أي وعاء من الخشب) فأخرج منه ورقة مكتوب فيها: سبحان الواحد الذي لا إله غيره، القديم المبدىء الذي لا بدء له، الدائم الذي لا نفاد له، الحي الذي لا يموت، الخالق ما يرى وما لا يرى، العالم كل شيء بغير تعليم، ذلك الله الذي لا شريك له[٣٣٥].

وكتب أبو جعفر عليه السلام إلى رجل دعاء يقول فيه: يا ذا الذي كان قبل كل شيء، ثم خلق كل شيء، ثم

يبقى ويفنى كل شيء، يا ذا الذي ليس في السماوات والعلى، ولا في الأرضين السفلى، ولا فوقهن ولا بينهن، ولا تحتهن إله يعبد غيره[٣٣٦].

٥ - برهان صرف الوجود

هذا البرهان عند الفلاسفة والمتكلمين يراد به الوجود المحض والخالص، حيث أن صرف الشيء كونه لا يتثنى ولا يتكرر.

وهذا البرهان والدليل لا ينطبق إلا على الذات الإلهية المقدسة الطاهرة، لأن كل حقيقة موجودة غير هذه الذات الإلهية رغم إن ظاهرها واحد إلا إنها في حقيقته ممتزجة ومختلطة بغيرها من الموجودات كما هو معروف من خلقها وشكلها، بل ومتأثرة بما يحيطها من الظروف الأخرى.

بل وإن إخراج الموجودات من ظواهر التداخل مع غيرها يخرجها من حال إلى حال، كالماء مثلاً الذي يتحول بفعل الحرارة إلى بخار، ثم نتيجة تأثره بالبرودة المحيطة به يتحول إلى ماء، عند ازدياد البرودة تتحول إلى جليد، وهكذا، حين تجد الذات الإلهية التي هي منبع كل شيء غير خاضعة للعوارض والمؤثرات فلا يمكن بأي حال من الأحوال تعددها أو اختلاطها وتركيبها.

ثمّ إن برهان صرف الوجود هذا قد ورد بتعبيرات متعددة في جملة من الآيات القرآنية المباركة، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

قال الله تعالى عن لسان نبيه يوسف عليه السلام: ﴿**يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار**﴾[٣٣٧].

فيوسف عليه السلام في سجنه كان يحاور اثنين من السجناء في إثبات مبدأ التوحيد من خلال التعرض إلى مفهوم الواحد الأحد الموصوف بالقهّار الذي يقهر من سواه ، فلا يسع عند ذلك القول بوجود إله آخر لأنه سيكون مقهوراً من قبل الله تعالى، وهو نقص لا يتسم به أي إله يعبد، فكيف تستسيغ النفوس عبادة الآلهة المتفرقين المقهورين.

ثم إن صفة القهار لم ترد في القرآن الكريم إلا ست مرات، وفي جميعها وردت بعد صفة الواحد، وفي ذلك تأكيد واضح على الله تعالى الواحد الذي ينادي به الأنبياء والمرسلون هو الربّ القهّار الذي يخضع كل شيء له.

ولنتأمّل في هذه الآيات الخمسة المتبقية:

ففي سورة الرعد قوله تعالى: ﴿**قل الله خالق كلّ شيء وهو الواحد القهار**﴾[٣٣٨].

وفي سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿**وبرزوا لله الواحد القهار**﴾[٣٣٩].

وفي سورة ص: ﴿قل إنّما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار﴾[٣٤٠].

وفي سورة الزمر: ﴿سبحانه هو الله الواحد القهار﴾[٣٤١].

وفي سورة غافر: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾[٣٤٢].

نعم ولنعد الآن إلى مبحثنا الأول في استعراض النصوص المتناولة لبرهان صرف الوجود:

قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾[٣٤٣].

الآية الكريمة توضح بجلاء القدرة المحيطة لله تبارك وتعالى من خلال خلق وملك وتدبير جميع ما في السموات والأرض، وهي نفي قطعي لوجود أي إله آخر غير الله سبحانه، لانعدام أي أثر له، أو دليل يشير إليه.

وغير ذلك من الآيات المباركة الكريمة التي تعرضنا للكثير منها في بداية كتابنا.

ثم إنه روي عن الإمام السجاد عليه السلام قوله: إن الله تعالى لا يوصف بمحدودية، عظم ربنا عن الصفة، فكيف يوصف بمحدودية من لا يحدّ ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير[٣٤٤].

وسأل أحد الزنادقة الإمام الصادق عليه السلام عن الله تبارك وتعالى ما هو؟ فأجابه عليه السلام: شيء بخلاف الأشياء، ارجع بقولي إلى إثبات معنى وأنه شيء بحقيقة الشيئية، غير إنّه لا جسم، ولا صورة، ولا يحس، ولا يجس، ولا يدرك بالحواس الخمس، لا تدركه الأوهام، لا تنقصه الدهور، ولا تغيره الأزمان[٣٤٥].

٦ - برهان الفيض والهداية

هذا البرهان المتسقرأ من الآيات والروايات المختلفة، والمتوج بالمقدمة العقلية المعضدة له يذهب به العلماء والمفكرون إلى القول بأن لله تبارك وتعالى وجود كامل، وأنه جلّ اسمه أصل ومنبع الفيض والهداية والكمالات غير المحدودة، وأنه تعالى لا يمكن أن يحرم المخلوقات من هذا الفيض وهذه العطاءات، ثم أن جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام - والذين هم لطف وفيض من الله جلّ اسمه - قد تطابقت كلمتهم على صدور هذا الفيض من الله تعالى وحده، حين لم نجد أي نبي أو رسول بلغ عن إله غيره سبحانه.

والتأمل في جملة متفرقة من الآيات القرآنية المباركة يظهر جانباً من هذا البرهان التوحيدي.

قال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول نوحي إليه أنّه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[٣٤٦].

وقال جلّ اسمه في سورة الأحقاف: ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من

الأرض أم لهم شرك في السّموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾[٣٤٧].

وأمّا الروايات المنقولة فمن ذلك ما ورد في وصية أمير المؤمنين علي عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام، حيث جاء فيها: يا بني إنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه[٣٤٨].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: ما بعث الله عز وجل نبياً حتى يأخذ عليه ثلاث خصال: الإقرار بالعبودية، وخلع الأنداد، وأنّ الله تعالى يقدّم ما يشاء ويؤخر ما يشاء[٣٤٩].

خاتمة المطاف

وأخيراً ونحن نحطّ رحالنا عند المحطة الأخيرة من تجوالنا في عالم التوحيد، وسماواته الرحبة الواسعة، وبعد هذه التأملات المتعجلة في جوانب محددة منه، لابد لنا أن نعرج إلى إيضاح بعض من الآثار الإيجابية للتوحيد، مع استعراض لنقائضها من الآثار المتعلقة بالشرك أجارنا الله تعالى والمؤمنين منه.

أقول: إن للتوحيد الكثير من الآثار المتعددة الأشكال والأبعاد، والتي منها ما يتعلّق بتربية النفس البشرية التربية القويمة المرتكزة على تجنب الانسلاخ من الفطرة السليمة التي خلقت فيه، والرافضة لكل أشكال العبودية للموجودات الناقصة والعاجزة، والسمو بها في عالم الرقي والرفعة، مع ما فيه من آثار متعددة تتشعب أبعادها لتحتوي كل نواحي الحياة البشرية، اجتماعية كانت أم اقتصادية أم سياسية أم أخلاقية أم... الخ.

نعم فإن الإسلام العظيم ينبه المسلمين على ما للتوحيد من نتائج عظيمة تؤدي بالإنسان إلى النجاح والرفعة والفوز بالجنان. قال رسول الله ﷺ: قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا[٣٥٠]. إذن فلإدراك ما يعنيه هذا القول لا بد لنا من معاينة آثاره المختلفة، وبشكل ميسر متعجل.

١ - الآثار الفردية للتوحيد

لا يخفى على أحد أنّ سعادة الإنسان الروحية تكمن في وجود المرتكز الروحي - الذي يمكن تسميته بنقطة الاتكاء الروحية - الذي يهب النفس البشرية حالة الأمن والإستقرار من خلال توفيره الحلول الناجحة والصائبة لجميع الحالات التي تحيط بها، والتي تفرض عليها مواقف وتحديات مختلفة تعجز هذه النفس عن مواجهتها دون الارتكاز على نقطة الاتكاء هذه.

نعم إنّ المطالعة المتأنية لحالات الإضطراب النفسي والروحي الذي أخذ يشكل حالة مرضية بادية للعيان في المجتمعات المادية المعروفة - وما يترتب عليها من نتائج سلبية رخيمة - يمثل في حقيقة الحال مصداق واضح للمآل الذي ينحدر إليه الفرد عند إعراضه عن هذا المبدأ السماوي العظيم.

إن الإيمان بوحدانية الله تبارك وتعالى، وما يترتب عليه من اعتقاد روحي وعقائدي بالنظام السماوي الذي جاء به الإسلام العظيم من أجل البشرية هو مرفأ الأمان الذي تستقر في جنباته الأرواح التي تنشد السعادة والنجاة، وبالتالي فهو خير معراج للنفس البشرية نحو الكمالات الإنسانية بعيداً عن السقوط في هاوية الحضيض والعبودية للشهوات البهيمية.

لقد جاء الإسلام العظيم - كما جاءت به الأديان السالفة قبل أن تنالها يد السؤ والتحريف - بأسباب الهداية الواضحة السبل، وفق برنامج سماوي متكامل، يرتقي من خلاله المؤمن في سلم الملكوت المتسامي في عالم السعادة الأبدية الخالد، وهذا لا يكون إلا من خلال التطبيق الكامل لكل تعليماته وتوجيهاته المختلفة، والتي ترتكز أساساً على مفهوم التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى.

ولنتأمّل في بعض النماذج التي أوردها القرآن الكريم، وجاءت بها السنة المطهّرة، كمناهج تربوية للنفس البشرية، والتحليق بها في عالم الكمال والرقي.

قال الله تعالى في سورة الكهف: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً**﴾[٣٥١].

فالله سبحانه وتعالى يضع نصب أعين الناس معادلة آنية تبين لهم أن شرط فوزهم ووصولهم إلى عالم التكامل العالي مشروط بأدائهم للأعمال الصالحة وعدم الإشراك بالله تعالى.

وقال جلّ اسمه في سورة الأنعام: ﴿**قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين**﴾[٣٥٢].

فالآية الكريمة هذه تشير بوضوح إلى أن الطاعة المطلقة للواحد الأحد هي سبيل الهداية والنجاة من الإنحراف، وهو أمر جلي وواضح كنا قد تعرضنا لإيضاح بعض مفرداته آنفاً.

ثم إنه روي عن الإمام الصادق‌عليه‌السلام قوله: القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله[٣٥٣].

بلى فالإنسان عندما ينحرف به التفكير عن جادة التوحيد لابدّ أن تقوده قدماه خارج الحدود الفطرية النقية، وبالتالي يتحول تدريجياً إلى موجود بهيمي لا هم له إلا إشباع غرائزه وشهواته، ويتحول قلبه إلى مركز وقطب للشيطان ومؤثراته الفاسدة.

ولا غرو في ذلك فمن ينسى الله تبارك وتعالى، ويعرض عن توحيده لابدّ له من أن تقوده خطواته المتخبطة نحو العمى والغفلة والنسيان والخسران في الدنيا والآخرة.

قـال الله تعـالى في سـورة الحشر: ﴿ولا تكونـوا كالّذيـن نسـوا الله فأنسـاهم أنفسـهم أولئـك هم الفاسقون﴾(٣٥٤).

٢ - الآثار الثقافية للتوحيد

التوحيد الخالص يربي الإنسان تربية تسمو به بعيدا في سماوات العزة والكرامة، وبعيداً عن حالات الذل والإستكانة والضعة، بل وتخلق منه إنساناً حراً، ثابت الجنان، قوي النفس، يمتلك القدرة الفياضة التي تؤهله لأن يكون عنصراً فاعلاً ومؤثراً في المحيط الذي يتعامل معه، ويعيش في جنباته.

التوحيـد ينأى بالإنسـان عن عالم الخرافات والسـنن الجاهلية التي تغلّف حيـاة الجهلة والمشركين، ويقوده بخطوط مسـتقيمة واضحة المعالم نحو رقيه وسـموه البشري، وبالشـكل الذي يريده له خالقه جلّ وعلا.

بيد أن عملية الوصول إلى هذا العالم المتكامل والمتسـامي تسـتلزم جهداً تفكيريـاً، ومنهجاً تقويمياً يخضع النفس للتفكير العقلي والمنطقي القائم على الأدلة والبراهين العلمية السليمة.

ومن هنا تجد أن الشريعة الإسـلامية تحث على التدبّر والتأمّل كوسـيلة عقلانية تقود الإنسـان نحو الإدراك الواقعي للكثير من المفردات الكونية التي تحيط به.

قال الله تعالى في سـورة الأعراف: ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السّـموات والأرض وما خلق الله من شيءٍ... ﴾(٣٥٥).

بـل وترى هذه الدعوة أيضاً تتردد أصداؤها في مدرسـة أهـل البيت، فهذا أمير المؤمنين علي يقول: لا عبادة كالتفكّر في صنعة الله تعالى(٣٥٦).

بل وإن الإمام الرضا يشدد في هذا الجانب، حيث يقول: ليس العبادة كثرة القيام والصلاة، إنما العبادة كثرة التفكر في أمر الله تعالى(٣٥٧).

نعم وإن التأمل في المشاهدات المختلفة، والمظاهر المتعددة تظهر أن الناس في تفكّرهم هذا إذا تجاوزا المناهـج التوحيدية العبادية فإن خطاهم تقودهم بلا ريب فيه إلى التخبط والتعثر، والسـقوط في هاوية الفشل الذريع.

بـلى وإن القـرآن الكريم يظهر بوضـوح أن هناك منهجين مـن التفكير: المنهج السـليم المرتكز على التوحيد، والمنهج السلبي الساقط التابع للهوى والنزوات المادية الشهوانية.

قـال الله تعالى في سـورة النحل: ﴿ضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكـم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجّهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيمٍ﴾(٣٥٨).

نعم أن التوحيد – بلا ريب فيه– يؤدي إلى إحياء النفس وبعثها من ربقة الانحطاط والتردي.

٣ - الآثار الاجتماعية للتوحيد

لا يخفى على مطلع ما يشكله التوحيد الإلهي من آثار ثقافية واضحة تؤدي إلى تحقيق الوحدة الإسلامية، من خلال تقوية العلائق الاجتماعية المختلفة بين أفراد المجتمع الإسلامي الواحد.

حيث أن وجود هذا القاسم المشترك بين عموم الناس، وإيمانهم به، وتأثيره فيهم، لابد أن يؤدي بالتالي إلى تجاوز عثرات الإختلاف الجزئية التي تتضاءل أمام بريق التوحيد اللامع والبراق، وهذا هو السبيل الأقوم لإقامة الوحدة الإسلامية التي تشكل الأطروحة التي تنادي بها الشريعة الإسلامية، قرآناً، وسنةً، كما كانت تؤكد عليه جميع الأديان السماوية قبل أن تنالها يد التحريف والتشويه.

قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿**و اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا**﴾[٣٥٩].

وقال جلّ اسمه في سورة البقرة: ﴿**وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾[٣٦٠].

وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿**ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الّذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربّي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم**﴾[٣٦١].

وقال عزّ اسمه في سورة النحل: ﴿**وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الّذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾[٣٦٢].

الآثار السلبية للشرك

الشرك بلا شك مصدر كل محنة وبلاء تحيط بالإنسان، فردا وجماعة، - وقد أشبعنا هذا الموضوع بحثا في صفحات الكتاب المتقدّمة - ولذا نجد التغليظ من الشريعة الإسلامية على دعاة الشرك، من الذين عمدوا بشركهم وإخراجهم الناس من حظيرة التوحيد إلى تفرقة المجتمع الواحد، وتمزقته شر ممزق، بمدعيات باطلة فاسدة.

قال الله تعالى في سورة الروم: **﴿ولا تكونوا من المشركين* من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون﴾**(٣٦٣).

بل ترى التشديد الإلهي على المشركين، والنكير عليهم بشكل واضح في كتاب الله تعالى، حيث يقول جل اسمه في سورة الإسراء: **﴿لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾**(٣٦٤).

بل ويصف تعالى عمق الإنحدار والتردي للمشركين، والمآل المأساوي الفظيع لهم في سورة الحج بشكل جلي وواضح، حيث يقول سبحانه: **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطّير أو تهوي به الرّيح في مكان سحيق﴾**(٣٦٥).

وقال جل اسمه في سورة العنكبوت: **﴿مثل الذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾**(٣٦٦).

نعم إن ما للشرك من الآثار السلبية الكبيرة التي تؤدي بالإنسان إلى الإنحطاط والتردي، وهو الذي جعل الشريعة الإسلامية تنادي بوجوب الحذر من التردي فيه، لما فيه من سقوط فكري، وإنساني، وأخلاقي، واجتماعي.

قال الله تعالى في سورة النساء: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾**(٣٦٧).

وقال جل اسمه في نفس السورة أيضاً: ﴿**ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالا بعيدا**﴾[٣٦٨].

وقـال عزّ من قائل في سـورة لقمان. ﴿**وإذ قال لقمان لابنه وهـو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**﴾[٣٦٩].

وقـال سـبحانه في سـورة الزمر: ﴿**ولقـد أوحي إليـك وإلى الذين من قبلك لئـن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين**﴾[٣٧٠].

وغير ذلك من الآيات المباركة التي لا يعسر على باحث اقتناصها بسهولة ويسر في كتاب الله العزيز، سـائلين الله تبـارك وتعـالى إن يجنبنا السـقوط في شـباك الشرك وبركه الآسـنة النتنة، إنّـه خير عون لمن استعان به وتوكل عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

الهوامش

(١) فاطر ٣٥: ٢٨.

(٢) آل عمران ٣: ١٩٠.

(٣) البقرة ٢:١٦٤

(٤) الرعد ١٣:٣.

(٥) النحل ١٦:١٢.

(٦) الروم ٣٠: ٢٢ – ٢٤.

(٧) الجاثية ٤٥: ٣.

(٨) آل عمران ٣: ١٩٠ – ١٩١

(٩) الأنعام ٦: ٩٧.

(١٠) النحل ١٦:١٦.

(١١) الذاريات ٥١: ٤٧.

(١٢) يس ٣٦: ٣٨ – ٤٠.

(١٣) الرعد ١٣: ٢.

(١٤) يس ٣٦: ٣٨ – ٤٠.

(١٥) الرعد ١٣: ٢.

(١٦) المؤمنون ٢٣: ١٢ – ١٤.

(١٧) الحج ٢٢ : ٥.

(١٨) الواقعة ٥٦: ٥٨ – ٥٩.

(١٩) النمل ٢٧: ٦٤.

(٢٠) الواقعة ٥٦: ٦٣ – ٦٤.

(٢١) النحل ١٦: ٦٨ - ٦٩.

(٢٢) الزمر ٣٩ / ٩.

(٢٣) المجادلة ٥٨ / ١١.

(٢٤) بصائر الدرجات: ٢٢ / ١.

(٢٥) تحف العقول: ١٩٩.

(٢٦) أمالي الصدوق : ٥٨ / ٩.

(٢٧) قرب الإسناد : ٦٧ / ٢١٧.

(٢٨) بحار الأنوار٢: ٣١ / ٢٠.

(٢٩) بحار الأنوار٢: ٣٢ / ٢١.

(٣٠) أمالي الطوسي: ١٦٠ / ٣٢.

(٣١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨١ / ٢٥.

(٣٢) بحار الأنوار ٢: ٣٢ / ٢٣.

(٣٣) الروم٣٠: ٣٠.

(٣٤) الدروع الواقية: ٣٢.

(٣٥) التوحيد: ٣٢٨ / ١.

(٣٦) الأنعام ١٦ ٧٤ - ٧٩.

(٣٧) فاطر ٣٥: ٢٤.

(٣٨) النساء ٤: ١٦٥.

(٣٩) العنكبوت ٢٩: ٦١.

(٤٠) العنكبوت ٢٩: ٦٣.

(٤١) لقمان ١٠: ٣١.

(٤٢) يونس ١٠ / ٣١.

(٤٣) الزمر ٣٩: ٣٨.

(٤٤) الزخرف ٤٣: ٩.

(٤٥) الزخرف ٤٣: ٨٧.

(٤٦) النساء ٤: ١١٦.

(٤٧) النساء ٤: ٤٨.

(٤٨) المائدة ٥: ٧٢.

(٤٩) نهج البلاغة ١٦: ٧٧.

(٥٠) عقائد الإمامية: ٣٨.

(٥١) الأنبياء ٢١: ٢١ – ٢٢.
(٥٢) المؤمنون ٢٣: ٩١.
(٥٣) الأعراف ٧: ١٩١ – ١٩٤.
(٥٤) الحج ٢٢: ٧٣.
(٥٥) الفرقان ٢٥ : ٣.
(٥٦) يونس ١٠: ٣٤ – ٣٥.
(٥٧) يوسف ١٢: ٣٩ – ٤٠.
(٥٨) التوحيد: ٨٣ / ١.
(٥٩) التوحيد: ٨٢ / ١.
(٦٠) لقمان ٣١: ٢٥، الزمر ٣٩: ٣٨.
(٦١) التوحيد: ٨٣ / ٢.
(٦٢) التوحيد: ٩٤ / ٤.
(٦٣) التوحيد: ٣١ / ١.
(٦٤) التوحيد: ٤٤ / ٣.
(٦٥) بحار الأنوار ٤: ٢٢٨ / ٣.
(٦٦) بحار الأنوار ٣ : ٢٩ / ٣.
(٦٧) التوحيد: ٧٥ / ٣٠.
(٦٨) التوحيد: ٧٦ / ٣١.
(٦٩) معاني الأخبار: ١٠ / ١.
(٧٠) الأنعام ٦: ١٥١.
(٧١) المائدة ٥: ٧٣.
(٧٢) الشورى ٤٢ / ١١.
(٧٣) الحج ٢٢: ٣١.
(٧٤) بحار الأنوار ٩٣: ٢١٨ / ١.
(٧٥) معاني الأخبار: ١١ / ٢.
(٧٦) جامع الأخبار: ٣٦ / ١٧.
(٧٧) نهج البلاغة ٦: ٣٩٨.
(٧٨) الكافي ١: ٩٠ / ٧.
(٧٩) التوحيد: ٧٣ / ٢٧.
(٨٠) النحل ١٦: ١٠٥.

(٨١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١١٤ / ١.
(٨٢) التوحيد: ١٤٠ / ٣.
(٨٣) التوحيد: ١٤٣ / ٨.
(٨٤) التوحيد: ١٤٠/ ٤.
(٨٥) نهج البلاغة ١: ٧٢.
(٨٦) نهج البلاغة ١٣: ٦٩.
(٨٧) رسالة الأسماء: ٤١.
(٨٨) تصحيح الاعتقاد: ٤٠.
(٨٩) البقرة ٢: ٢٥٩.
(٩٠) آل عمران ٣: ٢٩ و ١٨٩.
(٩١) آل عمران ٣: ١٦٥.
(٩٢) هود: ١١: ٤.
(٩٣) إبراهيم ١٤: ١٩.
(٩٤) النحل ١٦: ٤٠.
(٩٥) الكهف ١٨:٤٥.
(٩٦) النور ٢٤: ٤٥.
(٩٧) فاطر ٣٥: ٤٤.
(٩٨) يس ٣٦: ٨٢.
(٩٩) الفتح ٤٨: ٢١.
(١٠٠) القمر ٥٤: ٥٠.
(١٠١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ٣١١.
(١٠٢) البقرة ٢: ٢٩.
(١٠٣) البقرة ٢: ٢١٦ و ٢٣٢.
(١٠٤) البقرة ٢: ٢٢٤ و ٢٥٦.
(١٠٥) البقرة ٢: ٢٣١.
(١٠٦) البقرة ٢: ٢٣٥.
(١٠٧) البقرة ٢: ٢٥٥.
(١٠٨) البقرة ٢: ٢٨٢.
(١٠٩) آل عمران ٣: ٢٩.
(١١٠) آل عمران ٣: ١١٩.

(١١١) آل عمران ٣: ١٢٠.
(١١٢) النساء ٤: ٣٢.
(١١٣) النساء ٤: ٣٥.
(١١٤) النساء ٤: ١٠٨.
(١١٥) المائدة ٥: ٩٧.
(١١٦) المائدة ٥: ٩٩.
(١١٧) الأنعام ٦: ٥٩.
(١١٨) التوبة ٩: ٧٨.
(١١٩) الرعد ١٣: ٨ – ١٠.
(١٢٠) النحل ١٦: ١٩.
(١٢١) الحج ٢٢: ٧٠.
(١٢٢) لقمان ٣١: ٣٤.
(١٢٣) الأحزاب ٣٣: ٥١.
(١٢٤) المؤمن ٤٠: ١٩.
(١٢٥) الحجرات ٤٩: ١٨.
(١٢٦) شرح تجريد الاعتقاد: ٣٠٩.
(١٢٧) أوائل المقالات: ٥٤.
(١٢٨) طه ٢٠: ٧.
(١٢٩) بحار الأنوار ٤: ٧٩/ ٢.
(١٣٠) التوحيد: ١٣٤/ ١.
(١٣١) التوحيد: ١٣٥/ ٥.
(١٣٢) بحار الأنوار ٤: ٨٥/ ٢٠.
(١٣٣) الرحمن ٥٥: ٢٦ –٢٧.
(١٣٤) القصص ٢٨: ٨٨.
(١٣٥) بحار الأنوار ٥٧: ٣٦/ ١.
(١٣٦) التوحيد:٣١/ ١.
(١٣٧) بحار الأنوار ٨٤: ١٣١/ ٢٤.
(١٣٨) الصحيفة السجادية: ٥٥٦ (دعاء يوم الجمعة).
(١٣٩) بحار الأنوار ٤: ١٨٢/ ١.
(١٤٠) النساء ٤: ١٦٤.

(١٤١) القصص: ٢٨: ٣٠.

(١٤٢) الشورى ٤٢: ٥١.

(١٤٣) النساء ٤: ٨٧.

(١٤٤) النساء ٤: ١٢٢.

(١٤٥) كشف المراد: ٣١٧.

(١٤٦) فصلت ٤١: ٥٤.

(١٤٧) الأنعام ٦: ١٠٣.

(١٤٨) النساء ٤: ١٥٣.

(١٤٩) ١ لأعراف ٧: ١٤٣.

(١٥٠) التوحيد: ١١٨ / ٢٢.

(١٥١) أمالي الصدوق: ٢٢٩ / ٤.

(١٥٢) التوحيد: ٣٠٥ / ١.

(١٥٣) الأنعام ٦: ١٠٣.

(١٥٤) أمالي الصدوق: ٣٣٤ / ٢.

(١٥٥) البقرة ٢: ٢٥٥.

(١٥٦) الشورى ٤٢: ١١.

(١٥٧) النجم ٥٣: ١٣.

(١٥٨) النجم ٥٣: ١١.

(١٥٩) النجم ٥٣: ١٨.

(١٦٠) طه ٢٠: ١١٠.

(١٦١) بحار الأنوار ٤: ٣٦ / ١٤.

(١٦٢) الشورى ٤٢: ١١.

(١٦٣) كشف المراد: ٣١٩.

(١٦٤) طه ٢٠: ٨١.

(١٦٥) التوحيد: ١٦٨ / ١.

(١٦٦) التوحيد: ١٦٩ / ٣.

(١٦٧) كشف المراد: ٣١٨.

(١٦٨) الشورى ٤٢: ١١.

(١٦٩) بحار الأنوار ٣: ٢٩٤ / ١٧.

(١٧٠) الأنعام ٦: ٩١.

(١٧١) التوحيد: ١٠١ / ١٣.

(١٧٢) الإسراء ١٧: ١١٠.

(١٧٣) مجمع البيان ٣: ٤٤٦.

(١٧٤) نهج البلاغة ١: ٧٢.

(١٧٥) بحار الأنوار ٣: ٣٠٨ / ٤٧.

(١٧٦) بحار الأنوار ٣: ٢٦٦ / ٣١.

(١٧٧) بحار الأنوار ٣: ١٥٧ / ٢.

(١٧٨) بحار الأنوار ٤ : ٦٣ / ٢.

(١٧٩) الحشر ٥٩: ٢٣.

(١٨٠) الرعد ١٣: ١٦.

(١٨١) الأنعام ٦: ٦٢.

(١٨٢) يوسف ١٢: ٦٤.

(١٨٣) الزمر ٣٩: ٦٢.

(١٨٤) يوسف ١٢: ٣٩.

(١٨٥) نهج البلاغة ١: ٥٧.

(١٨٦) التوحيد: ٣٣٣ / ٣

(١٨٧) الذاريات ٥١: ٥٦.

(١٨٨) الزمر ٣٩: ٣.

(١٨٩) يونس ١٠: ١٨.

(١٩٠) المائدة ٥: ٢٧ – ٣٥.

(١٩١) الصافات ٣٧: ٩٥ – ٩٦.

(١٩٢) الصافات ٣٧: ١٢٥.

(١٩٣) الزمر ٣٩: ٢ – ٣.

(١٩٤) النجم ٥٣: ١٩ – ٢٣.

(١٩٥) الأنبياء ٢١ : ٢٥.

(١٩٦) النساء ٤: ٣٦.

(١٩٧) الأعراف ٧: ٥٩.

(١٩٨) الأعراف ٧ : ٦٥.

(١٩٩) الأعراف ٧: ٧٣.

(٢٠٠) هود ١١: ٥٠.

(٢٠١) هود ١١: ٦١
(٢٠٢) هود ١١: ٨٤.
(٢٠٣) النحل ١٦: ٣٦.
(٢٠٤) آل عمران ٣: ٥١
(٢٠٥) البقرة ٢: ٢٥٥.
(٢٠٦) بحار الأنوار ٩٢: ٢٦٢ / ٣.
(٢٠٧) أمالي الطوسي ٢: ٥٢٠ / ١٩.
(٢٠٨) تفسير العياشي ١: ١٣٦.
(٢٠٩) الغايات: ٦٩.
(٢١٠) مجمع البيان ١: ٣٦٢.
(٢١١) التوحيد: ٢٨٣ / ١.
(٢١٢) التوحيد: ٢٢٠ / ١٢.
(٢١٣) جامع الأخبار: ٣٦ / ١٧.
(٢١٤) أعيان الشيعة ١: ٣١٥.
(٢١٥) الأنعام ٦: ٧٥.
(٢١٦) التكاثر ١٠٢: ٥ – ٦.
(٢١٧) الكافي ٦: ٥٣ / ٢
(٢١٨) الكافي ٢ : ٥٤ / ٣.
(٢١٩) نهج البلاغة ١٠: ١٣٣
(٢٢٠) يوسف ١٢: ٩٤.
(٢٢١) النجم ٥٣: ١١.
(٢٢٢) التوحيد: ١١٦ / ١٧.
(٢٢٣) التوحيد: ٣٠٥ / ١.
(٢٢٤) بحار الأنوار ٥٩: ١٦٣ / ٢٣.
(٢٢٥) الشعراء ٢٦: ٨٩.
(٢٢٦) بحار الأنوار ٧٠: ٥٩ / ٣٩.
(٢٢٧) بحار الأنوار ٩٤: ٩٩ / ١٣.
(٢٢٨) بحار الأنوار ٤٠: ١٥٣ / ٥٤.
(٢٢٩) نهج البلاغة ١٩: ٦٨.
(٢٣٠) بحار الأنوار ٦١: ٢٥٠ / ٣.

(٢٣١) البقرة ٢: ١٦٥.
(٢٣٢) الإسراء ١٧: ١١١.
(٢٣٣) التوبة ٩: ٣٠ – ٣١.
(٢٣٤) بحار الأنوار ٩٣: ٢١٨ / ١.
(٢٣٥) الأنبياء ٢١: ٢١ – ٢٢.
(٢٣٦) النمل ٢٧: ٦٤.
(٢٣٧) البقرة ٢: ١٧٠.
(٢٣٨) المائدة ٥: ١٠٤.
(٢٣٩) يونس ١٠: ٧٨.
(٢٤٠) لقمان ٣١: ٢١.
(٢٤١) الزخرف ٩: ٢٢.
(٢٤٢) الأنبياء ٢١: ٢٥.
(٢٤٣) ا لقصص ٢٨: ٨٨.
(٢٤٤) الرحمن ٥٥: ٢٦.
(٢٤٥) القصص ٢٨: ٨٨.
(٢٤٦) فصلت ٤١: ٦.
(٢٤٧) البقرة ٢: ٢٥٥.
(٢٤٨) آل عمران ٣: ١٨.
(٢٤٩) التبيان في تفسير القرآن ٢: ٤١٦.
(٢٥٠) الأنعام ٦: ١٦٤.
(٢٥١) يونس ١: ٣
(٢٥٢) الأنبياء ٢١: ١٠٨.
(٢٥٣) الأنبياء ٢١: ١٠٧.
(٢٥٤) القصص ٢٨: ٧٠
(٢٥٥) يس ٣٦: ٢٣ – ٢٧.
(٢٥٦) غافر ٤٠: ٦٢.
(٢٥٧) غافر ٤٠: ٦٦
(٢٥٨) الروم ٣٠: ٤٣.
(٢٥٩) التبيان في تفسير القرآن ٨: ٢٤٨.
(٢٦٠) الرعد ١٣: ٢٨.

(٢٦١) الكافي ٢: ٣٩٧ / ٢.

(٢٦٢) الفقيه ٣: ٥٧٢ / ٤٩٥٤.

(٢٦٣) الكافي ١: ٥٦ / ١٢.

(٢٦٤) المائدة ٥: ٧٢ - ٧٣.

(٢٦٥) النساء ٤: ١١٦.

(٢٦٦) النساء ٤: ٤٨.

(٢٦٧) الكافي ٢: ٣٣ / ١.

(٢٦٨) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٩٩ / ١.

(٢٦٩) عبس ٨٠: ٣٤ - ٣٦.

(٢٧٠) أمالي الطوسي ٢: ٥٨ / ٤.

(٢٧١) الرحمن ٥٥: ٦٠.

(٢٧٢) التوحيد: ٢٨ / ٢٩.

(٢٧٣) التوحيد: ٢٩ / ٣١.

(٢٧٤) التوحيد: ١٩ / ٥.

(٢٧٥) ثواب الأعمال

(٢٧٦) التوحيد: ٢٣ / ١٢.

(٢٧٧) التوحيد: ٢٠ / ٧.

(٢٧٨) التوحيد: ٢٨ / ٢٨.

(٢٧٩) الروم ٣٠: ٣٠.

(٢٨٠) بحار الأنوار ٣٠: ٢٧٧ / ٤.

(٢٨١) التوحيد: ٣٢٩ / ٦.

(٢٨٢) التوحيد: ٣٣٠ / ٨.

(٢٨٣) الحج ٢٢: ٣١.

(٢٨٤) المحاسن: ٢٤١ / ٢٢٣.

(٢٨٥) الدروع الواقية: ٣٢.

(٢٨٦) بحار الأنوار ٣: ٢٨٢ / ٢٢.

(٢٨٧) يوسف ١٢: ١٠٦.

(٢٨٨) بحار الأنوار ٥: ١٤٨ / ١٢.

(٢٨٩) بحار الأنوار ٧٢: ٩٩ / ٢٤.

(٢٩٠) التوبة ٩: ٣١.

(٢٩١) بحار الأنوار ٧٢: ١٠٠ / ٣٠.

(٢٩٢) بحار الأنوار ٧٢: ١٠٠ / ٥٠.

(٢٩٣) البقرة ٢: ٢٦٤.

(٢٩٤) الأنفال ٨: ٤٧.

(٢٩٥) الماعون ١٠٧: ٧.

(٢٩٦) الكافي ٢: ٢٩٣ / ١.

(٢٩٧) الكافي ٢: ٢٩٣ / ٣.

(٢٩٨) الكافي ٢: ٢٩٥ / ٩.

(٢٩٩) الكهف ١٨: ١١٠.

(٣٠٠) بحار الأنوار ٧٢: ٢٩٧ / ٢٤.

(٣٠١) بحار الأنوار ٧٢: ٣٠١ / ٤١.

(٣٠٢) ثواب الأعمال١ : ٢٠ / ٣.

(٣٠٣) الزمر ٣٩: ١١.

(٣٠٤) الزمر ٣٩: ١٤.

(٣٠٥) البينة ٩٨: ٥.

(٣٠٦) الحديد ٥٧: ١٩.

(٣٠٧) بحار الأنوار ٧٧: ١٠٩ / ١.

(٣٠٨) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٠٤ / ٦٣.

(٣٠٩) القصص ٢٨: ٥٥.

(٣١٠) الفرقان ٢٥: ٧٢.

(٣١١) المؤمنون ٢٣: ٣.

(٣١٢) البقرة ٢: ١١١، النمل ٢٧: ٦٤.

(٣١٣) المؤمنون ٢٣: ١١٧.

(٣١٤) البقرة ٢: ٢٤٢.

(٣١٥) الأنعام ٦: ٥٠.

(٣١٦) الأنعام ٦: ٦٥.

(٣١٧) يوسف ١٢: ١٠٨.

(٣١٨) النحل ١٦: ١٧.

(٣١٩) النمل ٢٧: ٦٢.

(٣٢٠) الإشراق في اصطلاح الحكماء: ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وفيضانها على الأنفس الكاملة عند التجرد عن

المواد الجسمية، وهي حكمة مبنية على الذوق والكشف والحواس.

(٣٢١) المشاء: الكثير المشي، والمشائي هو الآرسطي، سمي مشائياً لأن أرسطو كان يعلم تلاميذه ماشياً وهذه الحكمة مبنية على الاستدلال والعقل «راجع المعجم الفلسفي ١: ٩٣ و ٢: ٣٧٣».

(٣٢٢) المؤمنون ٢٣: ٩١.

(٣٢٣) الملك ٦٧: ٣ – ٤.

(٣٢٤) بحار الأنوار ٣: ٢٣٠ / ٢٢.

(٣٢٥) النحل ١٦: ١٧.

(٣٢٦) الأنبياء ٢١: ٢٢.

(٣٢٧) شرح ألباب الحادي عشر: ٢٣.

(٣٢٨) الأنبياء ٢١: ٢٢.

(٣٢٩) المؤمنون ٢٣: ٩١.

(٣٣٠) التوحيد: ٢٥٠ / ٢.

(٣٣١) بحار الأنوار ٣: ٢٣٠ / ٢٢.

(٣٣٢) البروج ٨٥: ٢٠.

(٣٣٣) الحديد ٥٧: ٣.

(٣٣٤) بحار الأنوار ٧٦: ٢١٤ / ٢٣.

(٣٣٥) بحار الأنوار ٣: ٢٨٥ / ٤.

(٣٣٦) بحار الأنوار ٣: ٢٨٥ / ٥.

(٣٣٧) يوسف ١٢: ٣٩.

(٣٣٨) الرعد ١٣: ١٦.

(٣٣٩) إبراهيم: ١٦.

(٣٤٠) ص ٣٨: ٦٥.

(٣٤١) الزمر ٣٩: ٤.

(٣٤٢) غافر ٤٠: ١٦

(٣٤٣) البقرة ٢: ٢٥٥.

(٣٤٤) بحار الأنوار ٣: / ٤٧.

(٣٤٥) بحار الأنوار ٣: ٢٩ / ٣.

(٣٤٦) الأنبياء ٢١: ٢٥.

(٣٤٧) الأحقاف ٤٦: ٤.

(٣٤٨) نهج البلاغة ١٦: ٧٧.

(٣٤٩) التوحيد: ٢٣٣ / ٣.
(٣٥٠) بحار الأنوار ١٨: ٢٠٢ / ٣٢.
(٣٥١) الكهف ١٨: ١١٠.
(٣٥٢) الأنعام ٦: ٧١.
(٣٥٣) جامع الأخبار: ٥١٨ / ١٤٦٨.
(٣٥٤) الحشر ٥٩: ١٩.
(٣٥٥) الأعراف ٧: ١٨٥.
(٣٥٦) أمالي الطوسي ١: ١٤٥ / ٥٣.
(٣٥٧) بحار الأنوار ٣: ١٦١ / ١١.
(٣٥٨) النحل ١٦: ٧٦.
(٣٥٩) آل عمران ٣: ١٠٣.
(٣٦٠) البقرة ٢: ١٢٣.
(٣٦١) الزخرف ٤٣: ٦٣ – ٦٤.
(٣٦٢) النحل ١٦: ٦٤.
(٣٦٣) الروم ٣٠: ٣١ – ٣٢.
(٣٦٤) الإسراء ١٧: ٢٢
(٣٦٥) الحج ٢٢: ٣١.
(٣٦٦) العنكبوت ٢٩: ٤١.
(٣٦٧) النساء ٤: ٤٨.
(٣٦٨) النساء ٤: ١١٦.
(٣٦٩) لقمان ٣١: ١٣.
(٣٧٠) الزمر ٣٩: ٦٥.

الفهرس الموضوعي

مؤلفات السيّد الدّيباجيّ الالكترونية

١ - سيماء الأولياء وكراماتهم (ج٢)
٢ - حقوق الإنسان في الإسلام
٣ - حقوق المرأة في الإسلام
٤ - السيدة خديجةؑ: مقاومة، إيثار، أسطورة
٥ - نفحات الرحمن في منازل العرفان (ج١)
٦ - نفحات الرحمن في منازل العرفان (ج٢)
٧ - القصص القرآنية (ج١)
٨ - القصص القرآنية (ج٢)
٩ - القصص القرآنية (ج٣)
١٠ - القصص القرآنية (ج٤)
١١ - القصص القرآنية (ج٥)
١٢ - التوحيد، دراسة معاصرة، الحلقة الأولى من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٣ - النبوة، دراسة معاصرة، الحلقة الثانية من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٤ - العدل، دراسة معاصرة، الحلقة الثالثة من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٥ - الإمامة، دراسة معاصرة، الحلقة الرابعة من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٦ - المعاد يوم القيامة، دراسة معاصرة، الحلقة الخامسة من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٧ - منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشرؑ (ج١)
١٨ - منتقى الدرر سيرة المعصومين الأربعة عشرؑ (ج٢)
١٩ - منتقى الدرر سيرة المعصومين الأربعة عشرؑ (ج٣)
٢٠ - الفتنة العظمى، سلسلة دراسات تأريخية
٢١ - مظاهر الفرقة بين المسلمين وعلاجها
٢٢ - الإمام المهديؑ: الحقيقة المنتظرة
٢٣ - حوار حول الإمام المهدي (عج)
٢٤ - العباس بن عليؑ بطل النهضة الحسينية
٢٥ - زينب الكبرىؑ: بطلة الحرية
٢٦ - الحج: أحكاماً وفلسفة ودعاء
٢٧ - أجوبتنا على مسائلكم الدينية
٢٨ - رسالة عقائدية (ردّ على كتاب الشيعة والتصحيح للدكتور الموسوي)
٢٩ - الروضة المنتخبة
٣٠ - أجود المناظرات (تحت إشراف المؤلف)
٣١ - القصص الهادفة من سيرة المعصومين الأربعة عشر
٣٢ - أنصار الإمام الحسينؑ
٣٣ - فضائل ومناقب عليؑ وفاطمةؑ في مسانيد أهل السنة (ج١)
٣٤ - فضائل ومناقب عليؑ وفاطمةؑ في مسانيد أهل السنة (ج٢)
٣٥ - قصص المثنوي
٣٦ - خطر الأفيون
٣٧ - زيارة الإمام الرضا سلام الله عليه